علي أدهم

الخطايا السبع



ملتزم طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

مقدمة

يفرق بعض النقاد بين أدب العقل والتفكير وأدب الخيال والاحساس وبين الكاتب الذى يتحرى أن يعلم ويهذب والفنان الذى لا يقصد إلى اكثر من إثارة الشعور وإيقاظ الاحساس ، وهذا التقسيم صحيح فى جملته ولكننا فى كثير من الأحيان لا نستطيع أن نقيم الحد الفاصل بين أدب التعليم والتلقين وأدب المتعة الخالصة والفن النقى

ومن طبيعة الخيال أنه لا يتناول بريشته الخالقة إلا كل ما له فردية متميزة من الحقائق ، وأمثال هذه الحقائق الفردية قد تكون موضوع الكاتب الذى لم يحفل نصيبه من الفن مثل مسجل اليوميات أو كاتب الحوليات ، الذى يثبت ما وقع من الحوادث متوخياً الدقة والأمانة ، ولكن المؤرخ الفنان يصنع شيئاً غير ذلك ، فهو يتناول نفس هذه الحقائق الفردية ولكن بأسلوب آخر ، فهو ينسقها تنسيقاً خاصاً ، ويعايرها بميزانه ويؤكد أهمية بعض تلك الحقائق ويسلط عليها ضوءاً قوياً ويقلل من أهمية البعض الآخر ، فعمله له قيمة علمية من ناحية تحقيق الحوادث وغربلتها وقيمة فنية من ناحية طريقة السرد وأسلوب العرض، ومن طبيعة الأسلوب أنه ينم على الخيال ويتصل بالأدب وينتسب الى الفن .

وأدب التفكير المحض قد لا تقوى النفوس على احتماله ، وأدب المتعة وحده ضرب من الترف ، وفى أعتقادى أن الأدب الحق هو الذى يوفق بين الطرفين و يجمع مزايا الخصلتين ، وآفة أدب التفكير أن الكاتب قد يمعن فى الدعوة الى فكرة خاصة أو التبشير بمذهب معين ، وآفة الأدب الخالص أنه قد يستحيل ضرباً من اللهو ونوعاً من الزخرف والتوشية ، وخير الأدب عندى هو الأدب الذى تمتزج فيه الفكرة بالصورة امتزاج الروح بالجسد كما أن خير الكتب هو الكتاب الذى تتفق فيه فكرة الموضوع مع طريقة عرضه وهندسة بنائه

وقد استرشدت بهذه الفكرة فى اختيار هذه القصص التى نقلتها من الآداب الأوربية المختلفة إلى اللغة العربية ، ملتزماً الأمانة والدقة جهد الطاقة فى ذلك النقل ، فلم أتحر أدب المتعة وحده ولا أدب الفكرة وحده و إنما الأدب الذى يجمع الخصلتين ، وكل قصة منها لا تخلو من فكرة فلسفية أو وصف حقيقة نفسية ولكنها معروضة فى الثوب الملائم لها ومصبوبة فى قالبها الخاص بها وأرجو أن يظفر فيها القارىء بلذة الفكر ومتعة الإحساس معاً ؟

على أدهم

الخطايا السبع

(للروائية السويدية القديرة سلمى لاجيرليف) [١٨٥٨ — ١٩٤٠]

أراد الشيطان أن يمكر براهب حكيم ، فالتف فى عباءة فضفاضة ، ووضع على رأسه قبعة ضخمة مترهلة ، حتى لم يستطع أحد معرفته ، وأخذ سمته إلى الكاتدرائية ليرى الشيخ حيث يجلس فى كرسى الاعتراف يتلقى التوابين .

قال هذا الماكر « أيها الأب الموقر ، أنا مزارع ابن مزارع ، استيقظ مع الشمس ولا أغفل عن الصلاة ، و بعدها أمضى عامة يومى كدًّا فى الحقول ، وأتبلغ بالخبز واللبن ، وعند ما أرغب فى الائتناس بأصحابى أدعوهم لتناول الشهد والفاكهة ، وأنا أعول والدى ، وليس لى زوجة ، ولا ارب لى فى النساء ، وأثابر على الذهاب إلى الكنيسة ولا أحبس زكاة العشر عما أمتلكه ، وها قد سمعت اعترافى أيها الأب الموقر فهلا منحتنى الغفران »

فأجابه الراهب « يا ولدى أنت أتقى من رأيت ، وأنا أغفر لك بارتياح ، ولكن سأقص عليك ما حدث منذ زمن ليس بالبعيد فى نفس هذه الأنحاء ، وسيسرك ما أقصه عليك لأنك ستسمع عن أعمال صالحة تقنعك بأن الذين قاموا بها يعدون أشقياء واقعين فى الخطيئة إذا قيسوا بك »

فقال له الشيطان « أيها الأب الموقر ! إنك تغرينى بالكبرياء والعجب ،

فأجابه الراهب « وقانى الله شر هذه الخطيئة الكبيرة ، عند ماتسمع ماسأقصه عليك ترجع عن هذا الرأى »

ثم قص عليه هذه القصة :

« الشريف الأصيد صاحب هذا الحصن القائم على قمة الجبل الواقع فى الناحية المقابلة من النهر عقد العزم على أن يزوج ابنته من رجل سرى قوى النفوذ يحبها حباً شديداً ، ولكن الفتاة كانت تعارض فى ذلك لأنها عاهدت غيره على الزواج .

فكتبت رسالة إلى من تحبه أخبرته فيها كيف أن أباها أرغمها على الزواج من رجل آخر ، وذكرت له أنها تودعه وتقدم له أطيب التحيات ، وترجوه أن يبقى على نفسه ولا يذهبها أسى ، لأنها لا تزال تحمل له فى مضمر القلب كل إخلاص .

ولكن أباها أخذ الرسالة من الرسول ومزقها خفية .

واستقبلت الفتاة يوم عرسها منهلة الدمع ، ولكنها حبست دموعها فى الكنيسة ، ولو أن الحزن كان مرتسما على معارف وجهها ، حتى بدت لناظرها كالمتحجرة ، وبكى كل من فى الكنيسة لأجلها . ولما رأى والدها ما فعله بها الحزن ، هاله عمله فدعاها إلى مخدعه عقب عودتها من الكنيسة وقال لها « لقد أسأت إليك يا عزيزتى » وركع أمامها برغم كبريائه ، واعترف بأنه ارتكب عملا دنيئاً فى مصادرة رسالتها خشية أن يعلم حبيبها فيأتى يوم العرس فى جمع من أصحابه ويحملها بالقوة .

فقالت له « هذا يصح أن يكون عذرك ولكنك لا تدرى ماذا سبب من شقاء » .

وخرجت إلى المظلة

وجاء العريس ليستقبلها

« لماذا يا حبيبتى أرى على وجهك أمارات الحزن الشديد »

فأجابته « لأن لى حبيباً أقسمت ألا أتركه »

فقال لها « لا يحزنك أن صرت لى زوجة ! إن حبى لك من القوة بحيث أنى لا أظن أن غيرى يستطيع إسعادك أكثر منى »

فكان جوابها الوحيد « كل المحبين يقولون ذلك »

ثم جمعت شجاعتها وقالت لنفسها سأخبره فعسى الله أن يلين قلبه، وأفضت إليه بأنها هى وحبيبها قد تعاهدا على أن ينتحر المهجور منهما يوم عرس الهاجر « ولذا فان حبيبى سيقتل نفسه فى هذا اليوم » و بلغ منها الألم أشده ، فجثت عند قدميه وقالت متوسلة « دعنى أذهب إليه قبل أن يقضى الأمر »

وكانت قوة حزنها مؤثرة إلى حد أن زوجها — وقد جال بفكره أنه إذا تركها تذهب إلى من تحبه فإنه لا يراها ثانية — لم يتمالك نفسه عن أن يقول لها « افعلى ما تستحسنين فعله »

فوقفت وشكرته وعيناها مغرورقتان بالدموع ، ثم أخذت طريقها إلى قاعة الوليمة لترى المدعوين وكانوا جالسين على مقاعدهم بازاء الموائد ينتظرون الطعام ، وقد برح بهم السغب بعد الركوب مدة طويلة

وقالت لهم العروس « يا أصدقائى الأعزاء ، لا أكتم عنكم أنى ذاهبة بعد الاتفاق مع زوجى إلى لقاء حبيبى ، وهو يعتزم اليوم أن يقتل نفسه لأنى حنثت بعهده ، وسأذهب إليه الآن وأخبره بأنى أرغمت على الزواج من غيره ، ولا يدهشكم ذهابى بنفسى إليه لأن مثل هذه المهمة لا يؤتمن عليها رسول ، ولا تكفى فيها الرسالة ، ورجائى إليكم الا تمسكوا عن الأكل والشراب واللهو أثناء غيابى ، وسأعود إليكم بعد انقاذ حياته »

فبكى جميع الحاضرين عند ما تحدثت عن حزنها وقلقها المساور ، وقالوا لها « لا يحلو لنا الشراب ولا الأكل وأنت تعانين مثل هذا الحزن ، اذهبى إليه و بعد عودتك إلينا نتناول الطعام » وتركوا الموائد

واجتازت العروس ساحة القلعة ، وحدث ضوضاء ولغط فى المطبخ لأن أحد الوصفاء ذهب إلى رئيس الطهاة وأعلنه أن الوليمة أجلت لمدة ساعات ، فتضجر الرجل خشية أن يسرى الفساد إلى مأكولاته فرمى قرصا من الزبدة إلى النار وكسر سلة من البيض ، ثم أخذ بتلابيب الوصيف وألقاه خارج الباب ، ووقف شاهراً عليه مكنسة كبيرة

ولكن عند ما أقبلت العروس ، وطلبت إليه أن يطلق سراح الغلام ، أوقف العقوبة ، وخلى سبيله ، وقال الحمد لله الذى جعلك رحيمة إلى هذا الحد ، وما كنت لأزيدك حزناً على حزن » وحفظ الأكل مدة ساعات دون أن ينبس بكلمة تدل على الغضب والتغيظ

وسارت العروس وحدها موغلة فى الغابة الفسيحة لأنها أرادت أن تلقى

حبيبها وهى تسعى على القدم غير مصحوبة بأحد كما يدخل الإنسان بيت الله وحيداً فى ساعة الشدة

وكان يقيم فى الغابة رجل متشرد أفاق من متلصصة الطرق ، فأبصر قدومها وهو مستلق بين الأدغال ، وكانت فى يدها خواتم ، وعلى مفرقها تاج من الذهب ، وقد أحاطت بخصرها منطقة من الفضة ، وتدلت حول عنقها اللآلئ ، فقال اللص لنفسه انها امرأة ضعيفة ، وسأسلبها مجوهراتها وأصبح رب ثروة تمكننى من الذهاب إلى بلاد أخرى ، وأن أضع حداً لهذه الحياة البائسة الشقية فى هذه الغابة وأغدو رجلا محترماً أميناً

ولكن لما دنت منه العروس وأبصر وجهها خانته شجاعته لما أفاضه الله عليها من الجمال فقال لنفسه « أنا لا أقوى على إيذائها ، إنها عروس ، ومثل هذه الحسناء لا ينبغى أن تسلب حليها فى يوم الزفاف » وخشى الله الذى برأها وسواها وأفسح لها الطريق

وفى نفس الغابة كان يقيم ناسك شيخ يعذب نفسه بالتزامه اليقظة مدة ستة أيام وست ليال ، ولا يسمح لنفسه بالنوم الا فى اليوم السابع ، وكان قد أخذ نفسه بقانون صارم وهو أنه إذا عاقه شىء عن أن ينام نوماً هادئاً فعليه أن يستمر مستيقظاً مدة ستة أيام بلياليها ، وأقنع نفسه بأن هذه مشيئة الله ، والآن كان اليوم السابع والليلة السابعة قد شارفا الانتهاء دون أن يمنح نفسه الراحة لكثرة المترددين عليه من المحزونين المعذبين ، ولما فارقهم وأراد أن ينام أبصر بالعروس تخوض أحشاء الغابة المتكاثفة ، فقال لنفسه « كيف

تستطيع هذه المرأة أن تعبر النهر المضطرب الأواذى وقد طغى طوفانه هذه الليلة وأغرق الجسر ؟ » وترك راحته ومضى إليها ، وحملها على ظهره وعبر النهر ، وعند ما عاد إلى مغارته كان الوقت قد انقضى ، وهكذا لأجل سيدة لا يعرفها اضطر أن يستمر مستيقظاً ستة أيام وست ليال أخرى ، ولكنه لم يأسف لذلك لأنها كانت من الرقة والملاحة بحيث أن كل من وقعت عينه عليها يحب أن يضحى من أجلها بشىء

وأخيراً وصلت إلى منزل حبيبها ، فلما قرعت الباب كان لا يريد أن يفتح لأنه جرد سيفه وعزم على الانتحار

وكانت الفتاة لا تستطيع أن تناديه ولا أن تتوسل إليه لأن الحزن عقد لسانها ، ولكن دموعها فاضت وسمع نشيجها ، فلم يستطع أن ينتحر وهو يسمع ذلك ، فراخى المزلاق وأدخلها

فوقفت إزاءه مضمومة اليدين وشرحت له كيف أرغمت على الزواج من غيره ، ولما رأى أنه لا يزال يملك قلبها وعدها بأنه لا ينتحر ، ثم تعلقت به فقبلها وشعر بكل ما يتسع له القلب البشرى من سرور وحزن

وقال لهـا « يجب أن تنصرفى الآن لأنك لغيرى » فأجابته « كيف أقوى على ذلك ؟ » ولكن الفارس الذى يحبها نزع نفسه من بين ذراعيها وقال « لا أظلم من سمح لك بالمجىء إلىّ » وأعد جوادين مطهمين وصحبها إلى منزل أبيها

هذا ما رواه الأب الراهب للشيطان وهو يجهل من يحدثه ، ثم سأله : أى هؤلاء الناس الذين ذكرهم قدم أكبر تضحية ، وكان الراهب رجلا

عاقلا يعلم كل العلم أنه لا يوجد إنسان بدون خطيئة كما زعم هذا الغريب ، وخطر للراهب أنه بهذه القصة يستطيع أن يعرف أى الخطايا السبع خطيئته ، لأنه بتفضيله صنيع الأب أو الزوج أو الضيفان أو رئيس الطهاة أو اللص أو العابد أو المحب يستطيع الراهب أن يعرف هل خطيئته الكبرياء أو الحسد أو الجشع أو الغضب أو الحرص أو الكسل أو الشهوانية ، لأن الفضيلة التى نعجب بها أشد الإعجاب فى الغير هى الفضيلة التى نجد صعوبة فى اكتسابها

وكان الشيطان من الاستغراق فى إتقان لعبته بحيث لم يفطن للشبكة التى صنعها له الراهب فأجاب « حقاً إنه ليس من السهل الإجابة عن سؤالك ، ويظهر لى أن الزوج لم يعط أقل مما أعطاه المحب وأن الضيوف لم يقوموا بتضحية أكبر من تضحية اللص ، وكلهم يستحق أكبر الثناء » وظن أن هذا هو كل ما يريده الراهب أن يقوله

فقال له الراهب وقد هاله ذلك « التماساً لرحمة الله قل على الأقل إنك تفضل أحد هذه الأعمال على الآخر ، أو أنك لا تعلق أهمية كبرى على واحد منها »

فقال الشيطان « لا أستطيع أن أنتقص أى عمل من أعمالهم ، ولا أستطيع كذلك المفاضلة بينها »

فزم الكاهن شفتيه وأدناها من أذنه وقال فى صوت خافت « أتوسل إليك أن تقول إن أحدهم قدم أكبر تضحية »

فرفض الشيطان أن يقول ذلك والتمس المغفرة

فانفجر الراهب قائلا « أنت إذن فيك كل هذه الخطايا السبع ، وربما كنت الشيطان نفسه ولم تك بشرا !

ولما نطق بذلك وثب من كرسى الاعتراف ولاذ بالهيكل العالى وشرع يتلو تعويذة طرد الشيطان

ولما رأى الشيطان أن أمره قد افتضح بسط عباءته حتى صارت أشبه بجناحين مرفرفين ثم ارتفع محلقاً فى شكل خفاش أسود ضخم خلال أقبية الكنيسة المظلمة

ولم تنكشف حيلته ، ويبطل تدبيره فقط بل قد استحال شره بفضل الله بركة عظيمة ، لأن قصة الراهب كانت لمدة أجيال وسيلة للوقوف على طوايا النفوس ، وإذا استعملت بتعقل فهى مثل الشبكة يلقى بها الصياد فى غمار اليم لاصطياد السمك ، وهى تظهر الخطايا المستورة فنستطيع أن نحاربها وننتصر عليها .



حارس المنارة

(عن الكاتب البولونى سينكوكز)

[ولد هنرى سينكوكز سنة ١٨٤٦ ، ومات فى سنة ١٩١٦ ، وله فى الأدب البولندى مكانة سامية وتاريخ ناصع فى الدفاع عن قضية بولندة والعمل على تحريرها ، وهو مؤلف رواية « أين المفر » أو عهد « نيرون » ، ولم يضع سينكوكز أساس الرواية البولندية ، وإنما أنماها وأوسع نطاقها ، ورواياته التاريخية من أعظم طرف الأدب وأنفس ذخائر الفن ، وقد بدأ حياته صحفياً وكتب طائفة من القصص القصيرة ، ثم نبت به بلاده وأقام طويلا فى الولايات المتحدة ، فاتسع أمامه مجال الخيال وميدان الخبرة والتجربة ، وتظهر قدرته بأوضح مجاليها فى رواياته الكبيرة حيث يطلق العنان لخياله القوى وبراعته الفائقة فى التلوين ، ورواياته تنبض بالحياة وتعج بالحركة ، وإن كان يعاب عليها أنها غير متماسكة البناء ولا متينة التصميم ، وقصة « حارس المنارة » تعد من أبدع قصصه القصيرة]

فى ذات يوم اختفى حارس منارة أسبنوول القريبة من بناما ، ولم يترك وراءه أثراً ، وكان اختفاؤه فى خلال زوبعة ، ولذلك غلب الظن بأن الرجل المنكود الحظ قد تمشى الى أقصى أطراف الجزيرة الصغيرة الصخرية التى تقوم عليها المنارة ، وهناك قذفته الأمواج ، ورجح هذا الظن عدم الإهتداء إلى زورقه بمرساه فى اليوم التالى ، ولم تكن هناك مندوحة عن ملء مكانه فى أوجز مدى مستطاع ، وذلك لخطر شأن هذه المنارة عند الحكومة المحلية

وعند السفن التي تبحر من نيو يورك قاصدة بناما ، والملاحة فى خليج موسكيتو ، حيث تكثر السدود الرملية والأجراف صعبة حتى فى وضح النهار ، وفى الليل عند ما ينتشر الضباب الكثير الحدوث فى هذه المناطق التي تسخن ماءها حرارة شمس المنطقة الحارة تكاد تكون الملاحة غير ميسورة ، والمنارة فى مثل هذه الأوقات هى الدليل الوحيد للسفن الكثيرة

وكان اختيار حارس جديد للمنارة من شؤون قنصل الولايات المتحدة فى بناما ، ولم يكن هذا الاختيار بالأمر الهين ، إذ لم يكن هناك مفر من إيجاد الرجل المناسب فى خلال اثنتى عشرة ساعة ، وكان لا بد من أن يكون موفياً على الغاية فى يقظة الضمير والتوفر على القيام بواجبه ، ولذلك لم يكن من السهل أن يقع الاختيار على أول قادم وفاقاً للصدفة ، وكان يزيد الموقف حرجا عدم تقدم مرشحين على الاطلاق ، لأن الحياة فى المنارة ليست مما يغرى أهل الجنوب الذين يحبون البطالة ويعتقدون أن العز فى النقل ، وحارس المنارة شبه سجين ، فهو لا يستطيع أن يزايل منارته إلا فى أيام الآحاد ، وتأتيه ميرته فى زورق من اسبنوول يحمل معه الماء ، ولا يلبث أن يعود أدراجه فى التو واللحظة ، والجزيرة ومساحتها فدان خالية من السكان ، ويقيم الحارس فى المنارة ويحفظ فيها النظام ، وفى خلال النهار يعطى الاشارات بالأعلام المختلفة الألوان ، ليدل على تغير البارومتر ، وفى المساء يوقد المصباح ، وهذا عمل هين لولا أن عليه أن يصعد أكثر من أربعمائة درجة عالية منحدرة غير مرة فى اليوم للوصول

إلى المصباح الموضوع فى قمة البرج ، وفى بعض الأوقات يقوم بهذه السياحة مرات فى اليوم ، وعلى العموم فان الحياة هناك حياة راهب متعبد ، لذلك كان المستر اسحق فلكنبرج قلق البال ، كثير التفكير فى كيفية إيجاد حارس للمنارة ، ومن السهل أن نقدر سروره عندما تقدم إليه على غير انتظار فى نفس اليوم خلف لحارس المنارة، وكان هذا المتقدم شيخاً طاعناً فى السن ، يبلغ السبعين أو أكثر ، ولكنه كان منتصب القامة ، بادى النضارة ، له سمت الجندى ، وكان أسمر اللون قد كلل هامته الشيب، وتدل عيناه على أنه ليس من أهل الجنوب ، وكان يلوح على وجهه الحزن وانكسار الخاطر ، ولكن كانت تطالعك منه آيات الصدق والأمانة ، وقد سر فلكنبرج من أول نظرة ، فلم يبق إلا امتحانه ، ولذا بدأ هذه المحادثة معه :

— من أين أنت ؟

— أنا بولندى .

— وأين كنت تعمل إلى هذا الوقت ؟

— كان لى فى الأرض مضطرب .

— على حارس المنارة أن يلبث فى مكان واحد .

أنا فى حاجة إلى الراحة .

— هل مارست أشغالا أخرى ؟ وهل عندك شهادات حكومية شريفة ؟

فاستخرج الرجل المسن من صداره قطعة من الحرير الحائل اللون تشبه قطعة منتزعة من علم قديم ونشرها وقال « ها هى الشهادات ، وقد أخذت

هذا الصليب سنة ١٨٣٠ ، وهذا الصليب الثانى أسبانى من الحرب الكارلية وهذا الثالث نيشان فرنسى ، والرابع نلته فى النمسا

فأخذ فلكنبرج الورق وشرع يقرأ :

— هل اسمك سكافنسكى ؟ لقد أخذت عامين فى هجمة بالحراب ، لقد كنت جندياً جريئاً

— أستطيع أن أكون حارس منارة يوثق به

— عليك أن تصعد البرج مرات عدة فى اليوم ، فهل ساقاك سليمتان ؟

— لقد عبرت الهضاب سعياً على القدم

— أتعرف خدمة البحر ؟

— اشتغلت أربعة أعوام فى مراكب صيد الحيتان

— لقد عالجت أشغالا كثيرة .

— الشىء الوحيد الذى لم أعرفه هو الراحة .

— ولم ذلك ؟

— فهز الرجل منكبيه وقال « هكذا حظى »

— لا أزال أرى أن شيخوختك قد تحول دون اختيارك لحراسة المنارة

فقال الرجل وقد تجلى التأثر فى نبرات صوته « إنى مهدم القوة نضو لغوب ، وقد مارست تصاريف الزمن كما رأيت ، وهذا المكان من الأمكنة التى تمنيتها بكل جارحة من جوارحى ، وأنا الآن عالى السن ، وفى حاجة إلى الراحة ، وإلى أن أقول لنفسى « هاهنا سيستقر بى المقام

وألق مراسى الترحال » آه يا سيدى ! وهذا الآن متوقف عليك وحدك ، وقد لا تسنح لى مثل هذه الفرصة مرة أخرى ، فأى حظ هذا الذى ساقنى إلى بناما ، وأنا أضرع إليك ، وأقسم بالله العزيز إننى مثـل سفينة إذا أخطأت الميناء فستضل ويدركها العطب ، وفى استطاعتك أن تسعد شيخاً فانياً مثلى ، وأقسم لك بأنى رجل أمين ، وقد أخذت كفايتى من ذرع فضاء الأرض »

وكانت تبدو فى عينيه الزرقاوين آيات التوسل الشـديد ، حتى تأثر المستر فلـكنبرج الرقيق القلب وقال له « أقر اختيارك فأنت من الآن حارس المنارة »

— شـكراً لك .

— أتستطيع الذهاب إلى المنارة اليوم ؟

— نعم أستطيع .

— استودعك الله ، ولكن لى كلمة : أن أى تقصير فى الخدمة جزاؤه العزل

— اعلم ذلك .

وفى المساء عند دلوك الشمس فى الجانب الآخر من البرزخ ، وعنـد ما أخذ الليل المظلم ينسخ ضوء النهار المشمس ، كان حارس المنارة فى مكانه وكانت المنارة ترسل النور على الأمواج حسب المعتاد ، وكان الليل ساجياً لا تسمع فيـه لاغية ، شأن ليالى المنطقة الحارة المفعمة بالضباب الشفاف الذى يرسم حول القمر قوس غمام ملون مديد رقيق الحواشى

غير منكسر الأطراف ، وكان البحر هادئاً لا يشوب هدوءه سوى حركة المد ، وكان سكافنسكى يبدو من الشرفة كأنه نقطة سوداء ضئيلة ، وحاول أن يحصر شوارد أفكاره و يتأمل مكانه الجديد ؛ ولكن عقله كان واقعاً تحت ضغط شديد يعوقه عن أن يفكر تفكيراً منتظما ، كان يشعر شعور الحيوان الذى أجهدته المطاردة عند ما يهتدى إلى مخبأ فى صخرة أو مغارة تعصمه ، وقد شعر أخيراً بالراحة والأمن ففاضت نفسه بالسرور وأفعمت بالغبطة ، وهو يستطيع الآن ، فوق هذه الصخرة النائية ، أن يسخر من جولاته وسياحاته ، وعثرات حظه وكوارث حياته ، كان مثل سفينة قد حطمت الزوبعة أمراسها ، ومزقت شراعها ، وقذفت بها وسط الموج ، ولكنها كانت لا تزال تشق طريقها إلى المرفأ ، وقد أومضت صورة هذه الزوبعة بمخيلته ، فجعل يقارنها بالمستقبل الهادىء الذى لاحت بشائره ، وقد نفض على مسامع فكلنبرج بعض حوادث حياته ، ولكن ما قاله كان غيضاً من فيض ، ولقد كان من سوء حظه الملازم أنه حيثما يضرب خيمته ، و ينصب موقده ، و يعتزم الإقامة ، لا يلبث أن تهب عليه الرياح فتقتلع قوائم خيمته ، وتعصف بنيرانه ، وتحمله إلى البوار والدمار ، وقد عرجت به الذكريات الآن وهو يشرف من شرفة البرج ، و يرى الأمواج المستضيئة على كل ما مر به من ضروب الحوادث ، لقد خاض غمرات الحرب فى ميادين أركان الدنيا الأربعة ، ومارس فى أسفاره وتنقلاته كل مهنة ، ولما كان دؤوبا مجداً فى عمله مخلصاً فى أدائه فانه جمع

غير مرة نقوداً وادخرها ، ولكنه ما عتم أن فقدها برغم حيطته وحزمه وحسن تدبيره ، وقد اشتغل فى مناجم الذهب فى أستراليا ، وكان من المنقبين عن الماس فى أفريقية ، وقام بالحراسة فى جزائر الهند الشرقية ، وأنشأ محلا للاتجار بالماشية والأغنام فى كاليفورنيا ، فأتلف الجدب تجارته ، وحاول الاتجار مع القبائل المستوحشة فى داخل البرازيل فغرق زورقه فى الأمازون ، ونجا وحده أعزل ، وطاف فى الغابات أسابيع وعليه غلالة رقيقة ، وكان يعيش فى أثناء ذلك على الفواكه ، وهو مستهدف للموت من أنياب الوحوش الضارية ، وأسس محلا للحدادة فى هيلانه واركنزاس فاحترق محله فى حريق عظيم أكلت نيرانه المدينة برمتها ، ووقع فى يد الهنود فى الجبال الصخرية ولم ينج إلا بمعجزة ، ثم اشتغل بحاراً فى باخرة تسير بين باهيا وبردو فعاجلها الغرق ، ثم اشتغل مع صيادى الحيتان فى مركب من مراكب الصيد فغرق المركب ، وأنشأ مصنعاً لعمل سيجار هافانا فسرقه شريكه وهو مريض ، وأخيراً ألقى عصاه فى اسبنوول ، وهنالك كانت خاتمة فشله ونهاية كوارثه ، إذ ماذا عسى أن يرقى إليه فى هذه الجزيرة الصخرية ؟ لا الماء ولا النيران ولا الرجال ، ولكن سكافنسكى لم يشق كثيراً من الإنسانية ، وقد لقى فى حياته رجالا أبراراً أكثر ممن صادف من الأشرار ، وإنما كان يخيل إليه أن العناصر الأربعة تضطهده ، وتعمل على إيذائه والنكاية به .
وكان الذين يعرفونه يقولون عنه إنه قليل الحظ ويفسرون بذلك كل ما أصابه فى حياته ، وقد استحوذت عليه فكرة واحدة لم يتحول عنها ، وهذه الفكرة

هى أن يداً جبارة منتقمة تقفو أثره فى كل مكان ولا تفتأ تطارده فى اليابس والماء ، وكان لا يحب الإفاضة فى الكلام عنها ، وكان يشير إلى النجم القطبى ويقول « أنها تأتى من هذه الناحية » ، والواقع أن عثرات حظه كانت متلاحقة مستمرة بشكل يثير العجب والدهشة ويخف به الحلم ويضيق الذرع ، ولا سيما ذرع الرجل الذى تجرع مرارتها وقاسى أهوالها ، ولكن سكافنسكى كان له مثل صبر الهنود ، وقوة المقاومة الهادئة العظيمة التى تنبعث من صدق القلب وإخلاص السريرة ، فلم يهن للشدائد ، ولم يستسلم للنكبات ، ولم يقعد عن السعى ، وكان لهذا الجندى الذى صقلته الحوادث وفرته الخطوب قلب طفل ، ففى وقت الوباء الذى حاق بكوبا انتابه المرض لأنه وزع مقادير كبيرة من الكينين كانت فى حيازته ، ولم يترك لنفسه منه مثقال ذرة .

وفيه بعدُ هذه الخصلة الغريبة ، وهى أنه بعد كل هذا الفشل وخيبة الرجاء لم يزل ممتلئاً بالثقة فى أنه سيصادف حظاً ويلقى أياماً أسعد وأرغد ، وكان فى الشتاء يزداد نشاطه ويترقب بفروغ صبر تلك الحوادث الجسيمة ، وكان يطيل التفكير فيها مدة الصيف ، وطويت الأعوام وهو لا يرى منها سوى تبييض الشعر وإشابة الذوائب ، ثم علاه الكبر وجعل يفقد مضاءه ، وصارت قوة احتماله أشبه بالاستسلام ، واستحال هدؤه القديم فرط حساسية ، وتدهور هذا الجندى المحنك فصار مستعداً لإرسال الدمع لأى سبب ، وكان يجثم على روحه من الحين إلى الحين ميل شديد إلى وطنه ،

وكان يوقظ هذا الميل رؤية العصافير والأطيار وقمم الجبال المتوجة بالثلوج والموسيقى الحزينة ، وأخيراً استحوذت عليه فكرة الراحة واستغرقت كل رغباته وآماله ، ولم يتصور هذا الرحالة الذى نبت به البلاد أن هناك شيئاً أنفس وأثمن من ركن هادئ يستريح فيه وينتظر خاتمته ، وكان لطول تقلبه فى الأسفار يتصور أن أسمى سعادة بشرية هى أن يطمئن المقام بالإنسان فى ناحية من النواحى ، وكان لا يطمع فى أكثر من هذه السعادة المتواضعة ، ولتعوده خيبة الأمل و إخلاف الحظ صار يفكر فى الراحة كما يفكر عامة الناس فى شىء من وراء قدرتهم ، ولم يجترئ على أن يؤمل فيها ، ولكنه الآن على غير انتظار ظفر بمركز كأنه قد اختير له ، ولما أوقد المصباح فى المساء كاد يزيغ بصره ، وجعل يسائل نفسه أحقاً هذا ، ولم يجترئ على أن يؤكد لنفسه صدق الواقع ، ولكن الحقيقة أقنعته فى نفس الوقت ببراهين لا تنقض ، وانقضت ساعة وهو فى الشرفة ، وأخذ يجيل النظر فيما حوله ، ويقنع نفسه من جديد ، وخيل إليه أنه يرى البحر لأول مرة فى حياته ، وكانت عدسات المصباح تلقى إلى الظلام مثلثاً كبيراً من الضوء وراءه الظلام المعتكر حيث لا تستبين العين شيئاً ، وكانت غوارب الأمواج تصطخب فى الظلام وتتدافع إلى الجزيرة ، وكان المشرف من المنارة يشاهد متونها المزبدة وهى تضطرب وتتوثب متوردة اللون فى ضوء المنارة ، وكان المد يزخر أكثر فأكثر ويغمر الحواجز الرملية ، وكان هدير المحيط الغامض الخفى يزداد امتلاءً وقوة ويجىء مرة كزئير الغابات الهائلة أو قصف المدافع

وأخرى كاللغط المقبل من بعيد ، وكان يسود الهدوء هنيهة ثم تطرق أذن الشيخ بعده آهة عالية ، و إجهاش يتلوه انفجار مهدد منذر ، ثم أطارت الريح الضباب ، ولكنها أزجت سحباً سوداء متقزعة حجبت القمر وجعل يستشرى هبوبها ناحية الغرب ، وكانت الأمواج تتواثب مغضبة على صخر المنارة ، وتضرب بالزبد أساس الحيطان ، وعلى مسافة منه بدأت عاصفة تزمجر ، وكانت المصابيح الزرق تشع الضوء من صوارى السفن ، واشتد عويل العاصفة ، فآوى سكافنسكى إلى غرفته ، وكانت الناس فى السفن تجالد الليل والظلام والأمواج ، وكان الهدوء مخيما داخل البرج ، وحتى عزيف الزوبعة كان لا يكاد ينفذ من الحيطان السميكة ، وكان الشيخ المتعب لا يسمع سوى دقات الساعة

وانقضت ساعات ، وطويت أيام وأسابيع ، والبحارة يؤكدون أنه فى بعض الأحيان عند ما تشتد ثورة البحر يهتف بأسمائهم هاتف من جوف الظلام ، و إذا كان من دأب لانهائية البحر هذا الهتاف فمن الجائز أن الإنسان عند ما يمعن فى الكبر يستك فى مسامعه صوت هاتف مقبل من لا نهائية أخرى أشد حلوكة ظلام وأبعد قراراً فى الخفاء والغموض ، وكلما ازداد تبرماً بالحياة وأثقلت كاهله أعباؤها كان هذا الهتاف أشد وقعاً فى نفسه وأبلغ أثراً ، ولكن هذا الهتاف لا يصافح الآذان إلا فى ساعات الصمت والهدوء ، وفوق ذلك فإن الشيخوخة تغرى بالوحدة كأنها تهيىء للقبر ، ولقد كانت المنارة لسكافنسكى شـبه قبر ، والحياة فى المنارة راتبة مملة

لا يطيق احتمالها الشبان ، وحراس المنائر فى الأغلب رجال قد خلعوا الشباب وألفوا الحزن والعكوف على النفس ، فإذا ترك أحدهم منارته ومضى بين الناس ألفيته يسير بينهم كالمستفيق من نوم عميق ، وفى البرج لا يوجد ثمة مجال للتأثرات الدقيقة التى تعلم الناس فى الحياة العادية أن يلائموا بين أنفسهم و بين الأشياء ، وكل ما يكتنف حارس المنارة ضخم هائل ومجرد من التحديد ، فالسماء وحدة كلية ، والمياه كذلك وحدة شاملة ، و بين هاتين اللانهائيتين تلوذ روح الإنسان بالعزلة والتفرد ، والحياة فى المنارة استغراق متواصل فى التأمل والتفكير ، لا يوقظ الإنسان منه شىء ، وحتى نفس العمل الذى يباشره لا يقطع عليه تفكيره ولا يعترض تأمله ، وتمر الأيام متشابهة الصفحات مثل حبات السبحة لا تمتاز من بعضها إلا بالتقلبات الجوية ، وكان سكافنسكى يشعر بسعادة لم يشعر بمثلها فى كل أدوار حياته ، كان يستيقظ مع الفجر ، ويتناول طعام الافطار ، و ينظف العدسات ثم يجلس فى الشرفة يرسل رائد الطرف إلى الأبعاد المترامية من المياه ، ولم تمل عينه الصور التى كان يراها ، وكان يبصر على مهاد المحيط الفيروزى اللون شرع السفن المنتفشة تلمع فى أشعة الشمس لمعاناً يخطف الأبصار سناه ، وفى منتصف النهار كان يتطاير الدخان من بين الأشرعة ، وكان هذا الدخان ينبعث من باخرة مقبلة من نيويورك تحمل ركابا و بضائع إلى اسبنوول وتجر وراءها طريقا مزبداً ، وفى الجانب الآخر من الشرفة كان سكافنسكى يرى اسبنوول وميناءها الكثير الحركة و به غابة من الصوارى والقوارب ، وكأنها جميعاً على راحة يده ، وكانت

القوارب تتراءى له مثل الهوام ، وفى تباشير الصباح كان يهب النسيم عليلا نديا حاملا صخب الحياة البشرية المختلطة ، وقد تغلب عليه صفير البواخر ، وفى المساء حوالى الساعة السادسة تنقطع الحركة فى الميناء وتأوى النوارس إلى صدوع الأجراف وتضعف الأمواج ويعروها فتور وتبلد ، ويغمر الأرض والبحر والبرج سكون لا تشوبه شائبة ، وتلمع الرمال الصفراء التى انحسرت عنها الأمواج مثل الشرائط الذهبية ، وتبدو صورة البرج واضحة جلية فى الأزرق الرجراج ، وتنصب شآبيب ضوء الشمس على الماء والرمال والأجراف ، وفى مثل هذا الوقت كان يستولى على الشيخ الهرم نوع من الكلال المستعذب ، ويشعران بالراحة التى ينعم بها راحة فاخرة ، وكان عند ما يفكر فى أنها باقية مستمرة يشعر بأنه لا ينقصه شىء

كان سكافنسكى ثملا بسعادته ، ولما كان الانسان مجبولا على أن يألف التحسن فى أحواله وظروفه فانه استرد يقينه وثقته تدريجيا ، وكان يقول لنفسه إنه إذا كانت الناس تبنى المستشفيات للمرضى فلماذا لا يجمع الله شمل مرضاه ويظلهم برعايته وقد دنت نهايتهم وزاده مر الزمن إيمانا بهذه الفكرة ، وألف برجه ومصباحه وصخرته والحواجز الرملية والوحدة والنوارس التى كانت تضع بيضها فى صدوع الصخرة ، وتلتقى كل مساء فى سقف المنارة ، وكان يرمى لها بقية طعامه ، وسرعان ما ألفته الطيور ، فكانت تحف به وتحوم حوله بأجنحتها البيض وهو يطعمها ، وكنت تراه بينها كالراعى بين أغنامه ، وعند انحسار موجة المد كان يذهب إلى الرمل

حيث كان يجمع بعض الأعشاب البحرية والاصداف الجميلة التى خلفتها الأمواج على الرمل ، وفى الليالى المقمرة كان يذهب ليصطاد السمك الذى يغشى الجرف ، وقوى حبه لصخوره وجزيرته النائية الخالية من الأشجار والتى لا تخرج أرضها سوى نبت صغير

وكانت المناظر البعيدة تهون عليه فقر المناظر فى الجزيرة ، وفى خلال الأمسيات عند ما يصفو الهواء ويشف كان يستطيع أن يرى البرزخ مائجاً بالمزروعات وكان يتمثل له من بعيد حديقة رحيبة متسعة الأكناف ، وكان يرى وراء ذلك فيما بين اسبنوول و بناما غابة مترامية ينتشر فوقها صباح مساء ضباب أحمر ناشىء من التبخر ، وكان يستطيع أن يبصر بمنظاره أشجار الموز وأوراقها العريضة والقردة والأطيار الجميلة وأسراب الببغاوات ، ولقد كان يعرف هذه الغابات حق المعرفة لأنه أمضى أسابيع يجوس خلالها بعد غرقه فى الأمازون ورأى الأخطار العديدة وألوان الموت التى تختبىء خلف هذه المظاهر العجيبة الباسمة ، وكان يسمع فيها أثناء الليل ولولة القردة الصريعة وزئير النمور ، وكان يرى الثعابين الكبيرة ملتفة على الأشجار ، وقد عرف البحيرات الوسنانة في الغابات المترعة بالتماسيح والسمك الرعّاد وأدرك العبء الثقيل الذى يعيش تحته الإنسان فى هذه البرارى الأبكار حيث حجم أوراق الشجر يفوق حجم الإنسان عشرات المرات ، وحيث الناموس الذى يمتص الدماء والعناكب السامة ، وقد مارس حياة الغابات ورآها بعينى رأسه ، ولذا سره أن يشرف عليها من أعاليه

ويعجب بجمالها وهو من أخطارها فى حرز حريز ، لأن برجه قمين بأن يدفع عنه كل خطر ، وكان لا يبرح مكانه سوى أيام الآحاد ، وكان يرتدى حينذاك حلة حارس المنارة الزرقاء ذات الأزرار اللامعة الفضية ، و يعلق بصدره الأوسمة ، ويرفع رأسه فى كبرياء وترفع وهو يدخل باب الكنيسة ، ويسمع الناس يقولون « حارس منارتنا رجل شريف متدين » وكان ينكفىء إلى منارته بعد الصلاة ، فيقرأ الجرائد الإسبانية التى يستحضرها من المدينة ، أو جريدة نيويورك هرالد التى كان يستعيرها من فلكنبرج ، وكان يبحث فيها بشغف شديد عن أخبار أوروبا ، فقد كان قلبه الصديع المحزون المقيم فى الجانب الآخر من الكرة الأرضية لا يزال ينبض بحب بلاده ويهفو نحوها شوقاً ، وكان فى بعض الأحيان عند ما يجىء الزورق الذى يحمل اليه الميرة والماء ينزل من البرج ويحادث جونسون الحارس ، ولكن سرعان ما كان يغلبه الحياء ، ثم انقبض عن الذهاب إلى المدينة وعن قراءة الجرائد وعن النزول للكلام فى السياسة مع جونسون ، ومرت عليه أسابيع على هذه الوتيرة لا يرى إنساناً ولا يراه إنسان ، وكان الدليل الوحيد على وجوده اختفاء الميرة التى تترك على الشاطىء ، وضوء المصباح الذى كان يوقد كل مساء بنفس النظام الذى تشرق به الشمس كل صباح من وراء مياه تلك الأقطار ، وأصبح هذا الشيخ المسن لا يكترث لشىء فى الدنيا ، ولم يكن منشأ ذلك مرض النزوع إلى وطنه فإن نفس هذا الشوق الشديد إلى بلاده قد آض استسلاماً

وأصبحت الدنيا فى نظره تبتدى وتنتهى فى هذه الجزيرة ، واطمأن إلى فكرة أنه لن يبرح هذه الجزيرة حتى موته ، ونسى وجود كل شيء خارج الجزيرة ، واستقل مشاعره الاحساس الصوفى فجعل يلمح الأشياء بنواظر الأطفال الأبرياء ، وفقد شيئاً فشيئاً الشعور بالفردية تلقاء هذا المحيط الهائل العظيم ، وتراءى له أن السماوات والماء والصخر والبرج والشواطيء الرملية المذهبة والقلوع المنفوشة ونوارس البحر والمد والجزر كأنها جميعاً وحدة هائلة ضخمة وروح كبيرة خفية ، وأنه مطوى فى ثنايا أسرارها غارق فى خفاياها ، وأحس براحة كبرى فى هذه اليقظة الحالمة وهذا الانكار لفرديته ، ولكن أعقب ذلك كله اليقظة الكاملة !

ففى ذات يوم نزل سكافنسكى من برجه ليحمل ماءه وميرته ، فرأى مع الحمولة المعتادة طرداً على جانبه طوابع بريد الولايات المتحدة ، والعنوان « المحترم سكافنسكى » مكتوب على قطعة قماش غليظة ، ونبه هذا تطلعه ، ففض الغلاف ووجد كتباً ، وتناول أحدها فى يده ، وألقى عليه نظرة وأعاده إلى مكانه ، وجعلت يداه ترتجفان بشدة ، وحجب عينيه كأنه لا يصدقهما وخيل إليه أنه فى حلم ، وكان الكتاب باللغة البولندية فماذا يعنى هذا ؟ ومن عسى أن يكون قد أرسله ؟ ولم يخطر بباله أول وهلة أنه فى بدء التحاقه بالمنارة قرأ فى جريدة الرائد التى استعارها من القنصل أخباراً عن جمعية بولندية فى نيويورك ، وأرسل لهذه الجمعية نصف مرتبه ، لأنه لم يكن فى حاجة إلى نقود وهو فى البرج ، فأرسلت إليه الجمعية هذه الكتب مشفوعة بالشكر ،

وجاءت الكتب بالطريقة المألوفة ، ولكن كل ذلك لم يخطر بباله ، كتب بولندية فى اسبنوول ! وفى هذا البرج ! وفى تلك العزلة ! كان يرى فى ذلك ضرباً من المعجزة ، وخيل إليه أن هاتفاً يهتف باسمه بصوت مألوف منسى ، وجلس برهة وعيناه مطبقتان ، وكاد أن يتأكد من أنه عند ما يفتحهما لا يرى معالم هذا الحلم

وكان الطرد وهو ملقى أمامه ، وقد فض الغلاف عن محتوياته يضىء بوضوح فى وهج المساء ، وكان به كتاب آخر ، ولما مد سكافنسكى يده إليه سمع نبضات قلبه ، وكان الكتاب ديوان شعر ، ولم يكن اسم ناظمه مجهولاً عنده ، فقد قرأ اشعار ميكوكز وهو فى باريز عام ١٨٣٠ ، وسمع بعد ذلك من مواطنيه وهو يحارب فى الجزائر عن شهرته المتعالية و بزوغ نجمه ، ولكنه كان فى ذلك الوقت يحمل السلاح لا الكتب ، وفى سنة ١٨٤٩ ذهب إلى أمريكا ، ولم يصادف فى حياته الحافلة بضروب المخاطرات أحداً من البولنديين إلا فى النادر ، ولم تقع عينه على كتب باللغة البولندية ، ولذا عاد إلى الكتاب بتلهف وقلبه ينبض نبضاً عالياً ، وأحس أن حادثاً جللا قريب الوقوع فى صخرته النائية المنفردة ، وكانت ساعة صمت وسكون ، ودقت ساعة اسبنوول الخامسة مساء ، وكانت السماء صافية لا تشوبها شائبة سوى النوارس السابحة فى الفضاء ، وكان المحيط كأنما استولى عليه الرقاد وأخذت أمواجه تتعثر على الشاطىء فى سكون وتفترش الرمل ، وكانت ابنية اسبنوول البيض والفاف النخيل و بواسق الأشجار كأنها تبتسم من بعيد ، والحقيقة

أنه كان هناك شيء جليل مرهوب ، وفجأة كان يخترق هذا السكون صوت الرجل المسن المتهدج وهو يقرأ هذه الأبيات : « ليتونيا يا مسقط رأسى ، ومألف طفولتى ، انت كالعافية بعد السقم ، لا يدرى مكانك من نفوسنا إلا من كابد فقدك ، وعانى مرارة بعدك . وها أنذا اليوم يطالعنى جمالك فى أتم روائه ، واخلب صورة ، لشدة حنينى إلى قربك »

ثم خانه صوته وجعلت الحروف ترقص أمام عينيه ، وكأنما انفجر فى صدره شيء سرت موجته من القلب خانقة لصوته، ضاغطة على حنجرته وتقضت هنيهة ثاب بعدها إلى رشده وعاود القراءة .

« أيتها البتول الطاهرة التى تحمى سنتسكوا الزاهرة الفيحاء ، وتحرس قلعة نوفجرودك وسكانها الأمناء ، رديني بمعجزة باهرة إلى احضان بلادى كما رددت على فى طفولتى الصحة لما وضعتنى أمى الباكية تحت ظل رعايتك ودرجت فى سمت اعتابك المقدسة ورفعت جفنى الذابلين الى السماء شكرا لله على ما أعدت الى من عافية ورددت على من قوة » وغشيت نفسه غاشية على الرغم منه ، وتنهد وارتمى على الأرض ، واختلط شعره الأبيض برمل البحر ، ولقد مرت أربعون سنة منذ هجرته من وطنه ، والله يعلم كم مرة فى غضونها سمع لغة بلاده ، ولكنها الآن ابحرت اليه على متن المحيط ، وزاره حديثها المحبوب الجميل وهو فى وحدته : فى النصف الآخر من الكرة الأرضية

ولم يكن التنهد الذى ألم به تنهد ألم وإنما كان انبعاث حب شديد كان

ثاوياً فى جوانحه يهون بإزائه كل شىء ، ويتلاشى كل موجود ، وبهذا البكاء العظيم وحده توسل إلى تلك المحبوبة والتمس عطفها ، ولقد كان ألهاه عنها علو السن وصخرته النائية المنفردة ولكن الآن عاد إليه حبها القديم فوثب قلبه وثباً

ومرت دقائق وهو مستلق ، وطارت النوارس محلقة حول المنارة ، مرسلة الصياح كأنها كانت تخشى ما سيصيب صديقها حارس المنارة ، وحانت الساعة التى كان يطعمها فيها فضلات طعامه ، فطار بعضها إلى المنارة واقتربت منه رويداً رويداً ، وجعلت ترفرف بأجنحتها فوق رأسه فأيقظه صوت الأجنحة ، وكان قد استوفى نصيبه من البكاء وأظله هدوء وصفاء ، ولكن عينيه كانتا تلمعان بنور الوحى والإلهام ، فأعطى طعامه كله للطير وعاد إلى كتابه ، وكانت الشمس قد غابت وراء حدائق بناما وغاباتها ، وكانت تميل نحو المغرب خلف البرزخ فى المحيط الأعظم الهادى ، ولكن الاطلانطيقى كان لايزال حافلا بالضوء فاستطاع أن يتابع قراءته لحظةأخرى

« احملى الآن روحى المشتاقة إلى منحنيات هذه الغابات وتلك المراعى الخضر » وأخذ غبش المساء يخفى الحروف ، فأسند الرجل المسن رأسه إلى الصخرة وأطبق عينيه وطارت بروحه حامية سنتسكوا الفيحاء إلى تلك المراعى الخضر والحقول الضحيانة ، وكانت غابات الصنوبر تهمس فى أذنه ، وجداول بلاده يرتفع هديرها ، ورأى كل شىء كسابق عهده به ، وكان كل مشهد من المشاهد كأنما يسائله « هل تتذكر » نعم هو يتذكر !

كان يرى الحقول الفسيحة والغابات الواسعة والدساكر والقرى ، والآن خيم الليل ، وفى مثل هذه الساعة كان ينير الظلماء مصباحه ، ولكنه كان الآن غائباً فى قريته ، ثم أحنى رأسه على صدره وهو مستغرق فى الأحلام ، وكانت الصور تمر أمام باصرتيه مشوشة بعض التشويش ، ولم ير المنزل الذى ولد به لأن الحرب خربته ، ولم ير والده ولا والدته لأنهما ماتا وهو طفل ، ولكن القرية تمثلت له كأنما تركها بالأمس ، وتراءت له صور كل ما مر به من الحوادث وذكريات الليالى السالفة فى تفاصيلها الدقيقة وألوانها المتباينة ، وبينا هو مسترسل فى أحلامه أهاب به صوت يقول له « قم أيها الشيخ المسن . ماذا أصابك ؟ ففتح الرجل عينيه ، ونظر نظرة تعجب ودهشة إلى الواقف قبالته ، وكانت بقايا الحلم لا تزال تقاوم الحقيقة فى ذهنه ، وأخيراً انحسرت الرؤيا ، وغابت معالمها ، ورأى أمامه جونسون حارس الميناء .

ما هذا ؟ هل أنت مريض ؟

انك لم توقد المصباح ، وعليك ان تبرح مكانك ، ولقد غرقت باخرة مقبلة من سان جيرومو . ولحسن الحظ لم يغرق أحد من ركابها ، وإلا كنت قدمت للمحاكمة ، إنزل معى الى الزورق وستسمع الباقى فى القنصلية

فامتقع وجه الرجل وأدرك أنه لم يوقد المصباح هذه الليلة

بعد ذلك بأيام كان سكافنسكى على ظهر باخرة ذاهبة من اسبنوول إلى نيويورك ، وكان المسكين قد فقد وظيفته وعاوده التشريد فى البلاد ، وعادت

الرياح فانتزعت هذه الورقة لتطيرها فوق الأرضين والبحار ، وتلعب بها ما شاء لها اللعب ، وكان الهزال قد الح بجسمه ونال منه الضعف فى تلك الأيام القلائل ، ولكن عينيه كانتا تتوقدان ، وكان يحمل فى صدره وهو يسير فى طريقه الجديد كتابه ، وكان يتعهده بيده من الحين إلى الحين خشية أن يفقده كما فقد غيره ؟



الفـــار

عن استيفان زفايج .Stefan Zweig

(١٨٨١ — ١٩٤٢)

[هذه القصة مختارة من مجموعة قصص كتبها بالألمانية ستيفان زفايج ونقلها إلى الانجليزية ادن وسيادر بول ، وزفايج علم من أعلام الأدب العالمى الحديث ، وفنان مطبوع ، لا تند عنه عاطفة بشرية ولا تخذله صورة من صور الفن ، فهو شاعر وناقد ومؤلف مسرحى وكاتب قصصى ، وقد اشتهر بتراجمه البديعة ، وكل آثاره موسومة بميسم الأستاذية والتمكين ، وهو رجل مشغوف بالمعرفة دائم الاستطلاع والتنقل فى مختلف الآفاق ، وصفه صديقه رومان رولان بقوله : « انه يحب بعقله ويعى بقلبه » وهذا فيما أعلم هو شأن الفنان العظيم]

فى ليلة من ليالى صيف سنة ١٩١٨ أبصر صياد وهو فى زورقه ببحيرة جنيف على مسافة قريبة من المدينة السويسرية الصغيرة فلنبيف شيئاً غريباً غير مألوف طافياً على سطح الماء ، ولما اقترب منه لحظ أنه طوف مصنوع من أخشاب مشدود بعضها إلى بعض بطريقة غير محكمة ، وعليه رجل عار يجدف بلوح من الخشب ، وكان قد ابتردت أطرافه ونفدت قوته ، فحرك ذلك عطف الصياد الذاهل المتعجب ، فشرع يعاون هذا

السائح الذى كان يرتعش ارتعاشاً من رأسه إلى أخمصه على الانتقال إلى زورقه ، ثم ألقى عليه بعض الشباك ليستره بها ، وكانت هى الغطاء الوحيد الميسور ، وحاول أن يجاذبه الحديث ، ولكن الغريب الذى أنقذ جثم فى قاع الزورق وأجاب بلسان لم يستطع الصياد أن يفهم منه شيئاً ، ويئس الصياد من محاولته وجمع شباكه وحرك مجدافه ميمماً شطر الشاطىء

ولما ظهرت معالم الشاطىء فى ضوء الفجر المتبلج بدت على الرجل العارى أمارات الارتياح ، وتهللت ابتسامة على فمه الأشدق الذى يكاد يختبىء أكثره خلف شارب وحف أثيث ولحية كثة مرسلة ، وكان كلما قارب الشاطىء يومى إليه ، ويردد لفظة تقع فى الأذن موقع لفظة « روسيا » ، ولما دنا الزورق من المرسى فاضت نفسه سروراً ، وأفعمت بالثقة والاطمئنان ، وحين رسا الزورق على الشاطىء أقبلت لمة من النساء قريبات الصياد ليساعدنه فى إنزال صيد الليل ، ولكنهن سرعان ما تراجعن وتفرقن مرسلات صيحات الفزع عند ما أبصرن الرجل العارى المتدثر بالشباك ، ولما ذاع الخبر فى المدينة هرع الكثيرون إلى المرسى يتقدمهم شيخ البلد ، وأخذ هذا الرجل الملحوظ المكانة الشديد الإحساس بما له من خطر يراجع فى عقله مختلف التعليمات والأوامر التى وردت من المراجع العليا فى غضون سنوات الحرب الأربع ، وكان مقتنعاً بأن القادم الجديد لا بد أن يكون أحد الفارين القادمين من ناحية شاطىء البحيرة الفرنسى ، فأسرع فى الانهيال عليه بالأسئلة الرسمية ، ولكنه لم يلبث أن اعترضته صعوبة لم يستطع تذليلها والتغلب عليها ، وذلك أنه لم يستطع التفاهم مع هذا الغريب

القادم ، فقد كان لا يجاوب عما يوجه إليه من الأسئلة سوى بلفظة واحدة وهى « روسيا » « روسيا » ! بصوت مضطرب متعثر يبدو فيه التوسل والتماس الرحمة .

تضايق شيخ البلد من فشله ، وكبر عليه الأمر ، فسار فى طريق المحكمة ، وأشار إلى اللاجىء إشارة الآمر ليتبعه ، فأطاع الرجل وتقدم بين لغط الأطفال الذين تكاثروا لمشاهدته وهو يهرول فى ثيابه المستعارة الفضفاضة المدلاة . ولما بلغ المحكمة عهد بالمحافظة عليه إلى حراسة أمينة ، ولم يبد الرجل معارضة ، ولم يفه بكلمة ، ولكن غشيت وجهه قترة ، وأحنى رأسه فى خوف كأنه ينتظر الضربة المقبلة .

وتسامع نزلاء الفنادق المجاورة بأخبار ما حملته شبكة الصياد ، وأقبل الخليون منهم زرافات ليزجوا الوقت باستطلاع أحوال هذا الرجل الغريب ، وحاولت إحدى السيدات أن تقدم له شيئاً من الحلوى ، ولكنه رفض أن يمسها لسوء ظن خالجه شبيه بسوء ظن القردة ، وتحلق حوله المشاهدون وهم يتحدثون فى جذل وسرور ، وحضر أخيراً مدير أحد الفنادق الكبيرة المجاورة ، وكان جوابة أقطار ، ويعرف لغات عدة ، فحاول أن يتحدث إلى الغريب — الذى أصبح خائفاً فزعا — بالألمانية والايطالية والانجليزية ، وأخيراً بالروسية ، فعند أول لفظة روسية قرعت سمعه ، دب السرور فى أوصاله ، واشتد عزمه ، وأسفر محياه ، وشرع يقص قصته ويروى تاريخه ، وكان تاريخاً مشوشاً مضطربا ، ولم تكن تفصيلاته واضحة وضوحا تاما لهذا المفسر الذى ساقته المقادير ، ولكن جوهر القصة كان كما يأتى :

إنه حارب فى الروسيا ، وفى ذات يوم نقل هو وكثيرون غيره فى عربات السكة الحديدية ، وطوى بهم القطار مسافات شاسعة ، ثم أبحروا فى سفينة وقاموا برحلة طويلة ، ومروا ببحار شديدة الحرارة ، ولما رست بهم السفينة على البر فى نهاية الرحلة سافروا بطريق السكة الحديدية ، وبعد رحلة قصيرة أرسلوا لنسف تل ، ولم يطل حديثه عن هذه الحرب ، لأنه أصيب فى بادئ الأمر برصاصة فى ساقه .

واستطاع السامعون الذين تلقفوا القصة جملة جملة كما فسرها المترجم أن يدركوا أن هذا الهارب أحد جنود الفرقة الروسية المرسلة من سيبريا ، والتى عبئت فى فلاديفستك وأرسلت إلى فرنسا ودفع حب الاستطلاع المشوب بالعطف كل واحد من الحاضرين إلى أن يستفسر عن سبب قيام الرجل بهذه الرحلة التى أفضت به إلى هذه البحيرة .

ولم يضن عليهم الروسى بما يشفى غلتهم ، فقال للمترجم بابتسامة صريحة ولكنها ليست خالية من المكر ، إنه سأل أثناء وجوده بالمستشفى عن موقع روسيا فأشير له نحوه ، فعند ما استطاع الوقوف هرب ، وسار فى اتجاه وطنه مهتديا بالشمس والنجوم ، وكان يمشى فى آناء الليل ويختبىء فى النهار ببيادر الدريس ، وكان يمسك رمقه بأكل الفاكهة التى يجمعها ، ويسأل الناس من الحين إلى الحين رغيفاً من الخبز ، وبعد مسير عشرة أيام ورد البحيرة ، وهنا صارت قصته غامضة ملتبسة ، فهو مزارع من سيبريا ، ومنزله قريب من بحيرة بيكال ، ورأى أنه يستطيع بلوغ الشاطىء الآخر

من بحيرة جنيف ، ودار فى خلده أنه يلزم أن يكون الشاطىء الآخر هو روسيا ! وسرق بعض ألواح الخشب من أحد الأكواخ ، واستلقى عليها ، واتخذ منها مجدافاً ، وشق طريقه فى عباب البحيرة حيث وجده الصياد ، وختم قصته بهذا السؤال اللاهف !

« هل أستطيع أن أصل إلى وطنى غداً ؟

وأثارت ترجمة هذا السؤال عاصفة من الضحك بين الحاضرين لسذاجة الرجل ، لكنهم أشفقوا بعد ذلك عليه وقاموا بعمل اكتتاب ، ودفع كل واحد منهم مبلغاً زهيداً لمساعدة هذا الهارب الباكى المرعوب

وحضر أحد كبار موظفى الأمن العام ، وكتب تقريره الرسمى بصعوبة كبيرة لأن المترجم كان يجد عناء ومشقة فى فهم حديث الرجل ، ولأن نقص ثقافته أقامت حاجزاً بين عقله وعقل هؤلاء « الغربيين » فهو لا يستطيع أن يعرف لقبه ، وقد عاش هو وزوجته وأطفاله الثلاثة على مقربة من البحيرة العظيمة ، وهو من مزارعى الأمير متشرسكى

ودارت مناقشة عن مصيره وهو واقف منكس الرأس محنى الكتف ، وقد علت وجهه غبرة الحزن ، ورأى فريق من المتناقشين أنه يجب إرساله إلى المفوضية الروسية فى برن ، ولكن الفريق الآخر رأى أنه فى هذه الحالة يرد إلى فرنسا ، وكان هناك صعوبة أخرى من ناحية الفصل فى أمره ، وهل يعامل معاملة الفار أو معاملة أجنبى لا يحمل شهادات تدل على شخصيته ، وعنى ضابط الإقليم بأن يوضح أن هذا الأجنبى ليس له حق الضيافة على

نفقة السلطة المحلية ، وتقدم أحد الفرنسيين وقال متحمساً مهتاجاً : « إن حالة هذا الهارب البائس واضحة للغاية ، فدعوه يعمل أو ردوه إلى الحدود » فعارضت فى ذلك سيدتان ، وقالتا إن هذا الرجل لا يلام على ما حل به من البلايا ، وإنه من الإجرام أن ننتزع الناس من بلادهم ونرسلهم إلى بلاد أجنبية .

وكانت المناقشات السياسية الحادة توشك أن تظهر عندما تقدم فجأة رجل دانمركى ، وأعلن رغبته فى أن يدفع نفقات إيواء الغريب خلال الأسبوع القادم ، وتستطيع السلطات المحلية فى مدى تلك الفترة أن تبحث الأمر مع المفوضية الروسية ، وقد وضع هذا الحل غير المنتظر حداً للارتباكات الرسمية ، وجعل المختلفين من غير الرجال الرسميين ينسون اختلافاتهم .

وفى أثناء احتدام المناقشة كانت عين الغريب ترقب باهتمام شديد شفتى مدير الفندق بوصفه الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يعرّفه مصيره بين الجمع الحاشد ، وقد استطاع أن يفهم بعض الفهم الارتباكات التى سببها حضوره ، ولما هدأت حدة المناقشة رفع يديه المضمومتين إلى ناحية وجه المدير ، وتوسل ضارعاً فى صورة امرأة راكعة إلى تمثال مقدس ، فتأثر الجميع بازاء هذا المشهد ورقوا له ، وأكد له المدير أنه يستطيع أن يكون هادىء البال مطمئن النفس ، فقد سمح له بالبقاء هنا مدة من الزمن ، ولا يستطيع أحد أن يناله بسوء ، وأن جميع ما يحتاج إليه سيرسل له فى حانة المدينة ، وأراد الروسى أن يقبل يد المدير ، فرفض ذلك ، وصحبه إلى

الحانة حيث أعد له فراش ومائدة ، وأكد له أن الأمور تسير سيراً حسناً ، ثم انحنى له انحناءة تنم على العطف والرعاية وعاد أدراجه إلى الفندق .

وبعد انسحاب المدير أخذ اللاجيء يشيعه بنظره ، وأظلت وجهه غيمة من الكدر لابتعاد الرجل الوحيد الذى يستطيع التفاهم معه ، وأتبعه نظره حتى اختفى ، وتقدم أحد الحاضرين وربت على كتف الروسى بعطف ورفق وأشار إلى باب الحانة ، ودخل اللاجيء منزله الموقوت منكس الرأس ، ودعى إلى الحجرة التى تقدم فيها الجعة ، وجلس إلى مائدة حيث أحضرت له الخادمة كأساً من الكونياك ترحيباً بقدومه ، وقضى هناك بقية الصباح ، وكان أطفال القرية لا ينفكون ينظرون إليه من النافذة ، ويتغامزون ويتضاحكون ويصيحون به من الحين إلى الحين ، ولكنه كان لا يعيرهم التفاتاً ، وكان رواد الحانة يوجهون إليه نظرات فحص وتساؤل ، ولكنه كان طوال الوقت جالساً وعيناه متجهتان صوب المائدة ، وقد علاه الخجل والحياء ، ولما أحضر له طعام الغداء امتلأت الحجرة بالمتحدثين فى مرح وسرور ، ولكن الروسى لم يستطع أن يفهم شيئاً من أحاديثهم ، والواقع أنه كان كالأصم بين قوم يستطيعون أن يتجاذبوا الحديث ويتبادلوا الأفكار ، وكان يشعر بأنه غريب بين الغرباء ، وكانت يداه ترتعشان حتى إنه لم يستطع أن يتناول حساءه ، وتحدرت دمعة على وجنته وتساقطت على المائدة ، وأدار الطرف حوله فى حياء وخوف ، وأدرك رواد الحانة ما يعانيه الرجل من ضيق وكرب فاستولى عليهم الصمت .

وظل جالساً فى الحجرة حتى المساء ، وكان الناس يدخلون و يخرجون وهو لا يشعر بهم وهم لا يشعرون به ، ونسى الجميع وجوده ، ولما اشتد الظلام نهض بغتة من مقعده ، وخرج من الحجرة دون أن يراه أحد ، ومشى كالحيوان الأعجم بخطوات متثاقلة إلى الفندق ، ووقف بازاء بابه الرئيسى فى تذلل وخضوع مدة ساعة دون أن يسترعى التفات أحد ، وأخيراً لمحه أحد الحمالين فذهب لإحضار المدير ، ولما رأى الغريب المدير مقبلا أضاءت وجهه لمعة من السرور .

قال المدير فى رفق و إشفاق :

— ماذا تريد يا بوريس ؟

فقال متردداً و بألفاظ متعثرة :

— معذرة يا سيدى ، كل ما أريد معرفته هو هل تتاح لى العودة إلى وطنى ؟

فأجابه المدير مبتسما :

— نعم يا بوريس ستعود إلى وطنك

— غداً ؟

— ففارق الابتسام وجه المدير و بدت عليه سيماء الجد وقال :

— لا يا بوريس ، لم يحن الوقت بعد ، وستظل هنا حتى تضع الحرب أوزارها

— ومتى يكون ذلك ؟ ومتى تنتهى الحرب ؟

— الله وحده يعلم ، ولا يستطيع أحد معرفة ذلك

— أيلزم أن أنتظر طوال هذا الوقت ؟ أليست هناك وسيلة أخرى ؟

— لا يا بوريس

— وهل وطنى بعيد جداً ؟

— نعم

— على مسيرة أيام عدة ؟

— أيام كثيرة جداً

— ولكنى أستطيع السير ، وأنا رجل لا ينال منى الكلال ولا الإعياء

— لا تستطيع ذلك يا بوريس ، فهناك حدود أخرى لا بد من اجتيازها قبل أن تتمكن من الذهاب إلى وطنك

فقال وقد استولت عليه الدهشة والاستغراب !

— حدود أخرى ؟

ثم استرسل فى إصرار عجيب :

— إنى أحسن السباحة .

فلم يستطع المدير أن يمتنع عن الابتسام ، ولكنه تألم لمصابه وقال له فى رفق :

— لا يا بوريس ، لا تستطيع ذلك ، فالحدود هنا معناها بلاد أجنبية ، وأهلها لا يسمحون لك بالمرور

— ولكنى لا أسوء أحداً ولا أضر إنساناً ، وقد ألقيت سلاحى ، أتراهم يرفضون أن يسمحوا لى بالعودة إلى زوجتى عندما أتوسل إليهم باسم المسيح ؟

فاربد وجه المدير وامتلأت نفسه مرارة وألماً وقال :

— لا . هم لا يسمحون لك بالمرور ولو توسلت بالمسيح ، إن الناس لا يعملون الآن بوصايا المسيح

— ولكن ماذا أصنع يا سيدى ؟ أنا لا أستطيع البقاء هنا ، حيث لا يفهمنى أحد ، ولا أستطيع أن أتفاهم مع الناس

— ستتعلم ذلك فى الوقت المناسب

فهز رأسه وقال :

— لا ياسيدى ، فإنى لست قادراً على التعلم ، ولست أحسن غير فلح الأرض ، فماذا أستطيع أن أصنع هنا ؟ إنى أريد الذهاب إلى بلادى ، أرنى الطريق .

— لا طريق هناك يا بوريس

— ولكنكم يا سيدى لا تستطيعون أن تمنعوا عودتى إلى زوجتى وأولادى ! أنا لست جنديا الآن !

— إنهم يستطيعون منعك يا بوريس

— ولكن القيصر ؟ إنه بلا شك سيعيننى

وقد ذكر اسم القيصر باحترام شديد ، وأومض فى نفسه الأمل عند ما نطق باسمه

— لا قيصر اليوم يا بوريس ، لقد خلع

— لا قيصر اليوم ؟

ونظر إلى المدير نظرة بلهاء ، وانطفأت فى نفسه آخر شعلة من الرجاء ، واختفى البريق من عينيه ، وقال وقد استولى عليه الإعياء

— أهكذا لا أستطيع العودة ؟

— لم يحن الوقت بعد ، ويلزم أن تنتظر يا بوريس

— هل يطول ذلك ؟

— لا أدرى

فازداد وجهه تجهماً وانقباضاً وقال :

— لقد انتظرت طويلا ، وكيف أستطيع الانتظار ؟ دلنى على الطريق فإنى محاول العودة

— لا طريق يا بوريس ، سيقبضون عليك عند الحدود ، امكث هنا ، وسنبحث لك عن عمل

— هنا لا يفهموننى ولا أفهمهم ، أنا لا أستطيع البقاء ، ساعدنى وخذ بيدى

لا أستطيع يا بوريس

— ساعدنى يا سيدى لأجل خاطر المسيح ، ساعدنى و إلا فقدت الأمل

— لا أستطيع مساعدتك يا بوريس ، فالناس اليوم لا يساعد بعضهم بعضاً

ووقف الاثنان وكل منهما يحدق فى عينى الآخر ، وطوى بوريس قبعته بين أصابعه وقال :

— لماذا ساقونى من ديارى ؟ لقد قالوا إن على أن أحارب من أجل روسيا والقيصر ، ولكن الروسيا بعيدة و بعيدة جداً ، والقيصر ، ماذا قلت عما فعل به ؟

— لقد خلعوه

— لقد خلعوه — وأعاد هذه الكلمة فى غموض ولبس — ماذا أصنع يا سيدي ؟ يلزم أن أعود إلى بلادى ، إن أولادى يبكون من أجلى ، أنا لا أستطيع الحياة هنا ، ساعدنى يا سيدى ، اصنع معروفاً وساعدنى !

— لا أستطيع يا بوريس

— أليس ذلك فى وسع أحد !

— ليس ذلك فى وسع أحد الآن

فأطرق الروسى مكروباً محزوناً ، ثم قال بصوت خفيض: « شكراً لك يا سيدى » وانصرف عائداً فى طريق الحانة ولكنه لم يدخلها ، و إنما اتجه إلى السلالم المفضية إلى البحيرة

وتنهد المدير الطيب القلب وعاد إلى عمله والألم يحز فى نفسه ، وشاءت المصادفة أن يكون الصياد الذى أنقذ الروسى من البحيرة هو نفسه الشخص

الذى وجد فى الصباح جثة الغريق، فقد لف الهارب بعناية الملابس المستعارة ووضعها مع القبعة على الشاطئ ، وخاض الماء عارياً كما خرج منه

كان اسم هذا الغريب مجهولا ، فلم تنصب له لوحة تذكارية ، وإنما أقيم على ضريحه صليب خشبى لا يحمل اسماً



آسر حدون ملك آشور

أو وحدة الحياة

(للروائى الروسى العظيم تولستوى)

(١٨٢٨ — ١٩١٠)

غزا آسرْ حَدُّون ملك آشور ديار الملك ليللى ، ودمر بلاده تدميراً ، وتركها طعمة للنيران ، واستأسر سكانها جميعهم وساقهم مصفدين فى الأغلال ، وأطاح رؤوس المقاتلة ، وأهلك بعض الزعماء ، ومثل بالباقين أفظع تمثيل ، وحبس الملك ليللى نفسه فى قفص

و بينما كان الملك آسر حدّون مستلقياً فى فراشه وهو يفكر فى ابتداع طريقة لقتل الملك ليللى سمع فجأة ركزاً على مقربة منه ، ولما فتح عينيه أبصر شيخاً طاعناً فى السن ذا لحية بيضاء منسدرة تشع عيناه وداعة وحناناً .

وقال له الشيخ : أنت تفكر فى قتل الملك ليللى

فأجابه آسر حدّون : نعم أريد ذلك ولكنى لم أهتد بعد إلى طريقة لتنفيذه

— ولكن أنت نفسك ليللى

— كلا هذا غير حق ، إن ليللى هو ليللى وأنا أنا

— أنت وليللى شخص واحد ، وإنما أنت تتوهم أنك لست ليللى وأن ليللى ليس إياك

— ماذا تعنى بذلك ، هأنذا مستلق على فراشى الوثير وحولى من رجالى والموالى عبيـد خاضعون وإماء طائعات ، وغداً سأولم وليمة لأصدقائى كما فعلت اليوم ، فى حين أن ليللى محبوس كالعصفور فى القفص ، وغداً سيخزق ويظل فى وصب مندلق اللسان حتى تزهق روحه ويطرح للكلاب توسع جسده تمزيقاً

— ليس فى متناول قدرتك أن تفتك بحياته

— ولكن ما حال الأربعة عشر ألفاً من جنوده الذين أفنيتهم ورفعت من رممهم تلالاً ، وإنى ما أزال حيًّا ولكنهم الآن لا وجود لهم ، ألا ترى فى ذلك دليلاً واضحاً على أنى أستطيع أن أنهب الأعمار وأمحو الحياة ؟

— ولكن من أين جاءك أنهم غير موجودين ؟

— لأنى لا أراهم، وفوق ذلك إنهم قد تعذبوا ، وذاقوا الغصص والآلام ولكنى لم ألق عذاباً ولم أكابد ألماً ، ولقد كان ذلك نقمة عليهم ونعمة لى

— هذا يبدو لك كذلك ، وأنت إنما عذبت نفسك ولم تعذبهم

— إنى لا أفهم حديثك

— أتريد أن تفهم ؟

— نعم أريد ذلك

— إذن تقدم هنا : وأشار إلى حوض متسع متأق بالماء

فنهض الملك ودنا من الحوض

— اخلع ثيابك وادخل الحوض

ففعل آسر حدّون ما أمره به الشيخ

وقال الشيخ وهو يملأ الجرة ماءً : « عند ما أصب عليك الماء غطس رأسك » وأمال الشيخ الجرة على رأس الملك ، وأحنى الملك رأسه حتى صار تحت الماء

أخذ الملك آسر حدّون بعد ذلك يشعر بأنه أصبح شخصاً آخر غير آسر حدّون ، ولما أحس بأنه ذلك الشخص الآخر رأى نفسه مستلقياً على فراش فاخر و إلى جانبه امرأة حسناء لم يكن قد رآها من قبل و إنما أدرك أنها زوجته ، وهبت المرأة وقالت له :

« زوجي العزيز ليللى ! لقد أنهكك مجهود الأمس وقد نمت أكثر من المعتاد وقد حرصت على راحتك ولم أوقظك ، ولكن الأمراء ينتظرونك الآن فى البهو ، فالبس ثيابك واخرج لهم »

ففهم آسر حدون من هذه الكلمات أنه ليللى ولم يستغرب ذلك و إنما عجب كيف لم يدر ذلك فى خلده من قبل ، ونهض من فراشه وارتدى ملابسه وخرج إلى البهو حيث كان الأمراء ينتظرونه

وحيا الأمراء ملكهم ليللى ، وألصقوا جباههم بالأرض ، ثم رفعوا

رؤوسهم بعد أن ألقى عليهم كلمة ، وجلسوا أمامه ، وشرع أكبر الأمراء سناً يتكلم قائلاً : « إنه أصبح غير ميسور احتمال إهانات الملك آسر حدّون وإنه يلزم أن تعلن عليه الحرب ، ولكن ليللى خالفهم ، وأمر بإيفاد الرسل للاحتجاج على أعمال الملك آسر حدّون ، وصرف الأمراء من حضرته ، واختار بعد ذلك جماعة من الأعيـان ليكونوا سفراء ؛ ولقنهم ما يقولونه للملك آسر حدّون ، ولما أنجز آسر حدّون عمله — وكان يشعر بأنه ليللى — امتطى جواده وانطلق ليصطاد الحمر الوحشية ، وأصابه التوفيق فقتل بيديه حمارين وحشيين ، ولما عاد أدراجه إلى قصره أولم وليمة لأصدقائه وشـاهد رقص الجوارى ، وفى اليوم التـالى ذهب إلى البلاط حيث كان ينتظره مقدمو العرائض وأصحاب الدعاوى والأسرى المجلوبون للمحاكمة . وهناك فصل كعادته فى المسائل المعروضة عليه ، ولما أتم عمله وقام بواجبه اقتعد صهوة جواده ، وتوجه للصيد ، وكان رياضته المحبوبة . وأسعفه الحظ فصاد لبوة عجوزاً معها شبلاها ، وبعد الصيد أولم وليمة لأصدقائه وشاهد خلالها الرقص ، وسمع عزف الموسيقى ، وقضى ليلته مع الزوجة التى يحبها .

وهكذا كان وقته مقسما بين واجباته الملكية والمتع والمسرات ، وقضى أياما وأسابيع ينتظر عودة رسله الذين أوفدهم إلى الملك آسر حدّون الذى كانه يوما ما ، ولم تعد الرسل إلا بعد مضى شهر ، ورجعوا وقد جدعت أنوفهم وصلمت آذانهم ، وأمرهم الملك آسر حدّون أن يبلغوا الملك ليللى أن ماصنع بهم سيصنع بالملك ليللى نفسه إذا لم يبادر بارسال الجزية من الفضة

والذهب وخشب السرو والحضور بنفسه ليقدم الطاعة للملك آسرحدّون .

فجمع ليلى – آسرحدّون سابقاً – الأمراء وشاورهم فى الأمر فأشاروا عليه جميعهم بأن لا مناص من الحرب ومهاجمة الملك آسرحدّون قبل أن يغزوهم فى عقر دارهم ، وأقرهم الملك على ذلك ، وسار فى طليعة الجيش وبدأ الجهاد ، وكان يركب كل يوم ليستنهض عزيمة رجاله ويثير حميتهم ، وفى اليوم الثامن من مسيره التقى جيشه وجيش الملك آسرحدّون فى واد متسع يشقه نهر ، واستمر القتال واستبسل جيش الملك ليلى ، ولكن ليلى – الذى كان آسرحدّون سابقا – رأى جيش العدو يزحف من سفوح الجبل فى عدد النمل حتى غص به الوادى وتغلب على جيشه ، فطار فى عربته الحربية إلى بهرة المعركة ، وأثخن فى العدو إثخاناً ، وبطش بهم بطشاً ذريعاً ، ولكن جيش الملك آسرحدّون كان يفوق جيشه عدداً ، وشعر ليلى بأنه قد جرح ووقع أسيراً ، وطوى تسعة أيام فى سفر مع سائر الأسرى مكبلا بالقيود وحوله جند آسرحدّون ، وفى اليوم العاشر دخل نينوى ووضع فى قفص ، وكان لا يبالى السغب ولا ألم الجراح ، وإنما كان يحز فى نفسه عار الهزيمة والاحساس بالعجز ، ورأى أن كل ما يستطيعه فى هذا المأزق هو أن يحرم عدوه سرور رؤية آلامه ، ولذا صمم على أن يحتمل صابراً كل ضروب التعذيب وصنوف الآلام ، وأمضى فى قفصه عشرين يوماً ينتظر الإعدام ، ورأى رجال حاشيته وأصفياءه وأقاربه يقادون إلى الموت ، وكانت همهمتهم تخترق صماخ أذنه ، وكان أحيحهم يشق سمعه ،

فبعضهم قطعت أيديهم و بترت أرجلهم ، والبعض سلخت جلودهم أحياء ، وقد احتمل رؤية ذلك دون أن يظهر توجعاً أو رثاء أوتفزعا ، ورأى زوجته وريحانة قلبه مقيدة بالسلاسل ، يقودها اثنان من الخصيان السود وعرف أنها مسوقة إلى الملك آسر حدون ، واحتمل ذلك بلا تذمر ولا تأفف، ولكن أحد الجنود الموكلين بحراسته قال له : « أنا مشفق عليك يا ليللى ، لقد كنت بالأمس ملكا فانظر ماذا صار إليه أمرك » . ولما سمع ليللى هذه الكلمات تذكر ملكه الضائع فأمسك بقضبان القفص وضرب رأسه فيها محاولا الانتحار، ولكن لم تكن به قوة على القيام بذلك فأنَّ من الألم وغلبه اليأس وارتمى فى أسفل القفص .

وحضر اثنان من الجلادين وفتحا باب القفص وأخذا فى تكتيفه ، وقاداه إلى مكان الاعدام ، وكان مخضباً بالدماء ، ورأى ليللى خازوقا يقطر منه الدم ، وقد انتزعت منه جثة أحد أصدقائه فعرف أنه مهيأ لقتله ، ونزعوا ملابسه ، فهاله نحف جسمه الذى كان قويا جميلا ، وحمله الجلادان وكانا على وشك وضعه فوق الخازوق .

وفكر ليللى فى الموت والعدم ونسى اعتزامه أن يظل إلى النهاية محتفظا بهدوئه قانيا شجاعته ، وارتفع صوته بالبكاء والنحيب ، والتمس الرحمة دون أن يصغى لشكاته أحد .

ولكنه فكر أخيراً « هذا لا يمكن أن يكون ولا بد أن أكون فى نوم عميق ، ولا بد أن يكون ما أنا فيه حلم رهيب » وحاول اليقظة من

النوم ، وما عتم أن استيقظ ولكنه لم يجد نفسه آسرحدّون ولا الملك ليللى، وإنما وجد نفسه نوعا من الحيوان فعجب لذلك ، وكان أشد ما يثير عجبه هو أنه كيف لم يعرف ذلك من قبل .

كان يرعى فى واد معشوشب ، ويمزق الكلأ بأسنانه وأنيابه ويطرد الذباب بذنبه المسترخى ، وكان يمرح حوله جحش أشهب طويل الساقين منمر الظهر ، ثم انطلق يعدو إلى آسرحدّون ولكزه تحت بطنه بفمه الناعم المستدق ملتمساً الضرع ، ولما أصابه أخذ يترشف منه ترشفاً متصلا وأدرك آسرحدّون أنه أتان ، ولم يدهشه ذلك ولا أحزنه ، بل سره أن يرى حياته نامية سارية فى ذريته ، ثم سمع حوله حفيفا وأحس بسهم صارد نفذ حده المسنون من الجلد إلى اللحم وشعر بألم مرمض ، ونزع آسرحدّون — الذى كان فى نفس الوقت أتانا — الضرع من فم الجحش وأرخى أذنيه وانطلق يعدو الى العانة التى ضل منها يتلوه الجحش ، ولما قاربا العانة التى أجفلت أصاب سهم آخر رقبة الجحش واصماه مخترقا الجلد إلى اللحم فزحر زحيراً مؤلما واقعى على ركبتيه ولم يستطع آسرحدّون أن يتركه وظل واقفاً إلى جانبه ، ونهض الجحش مترنحا على سيقانه الهزيلة وسقط من الإعياء ووثب إليه الرجل واحتز رأسه .

ففكر آسرحدون وغمغم لنفسه « هذا لا يمكن أن يكون لا بد أن أكون فى حلم . وحقيقة أنى لست ليللى ولست الحمار الوحشى ولكنى آسرحدون . وبذل مجهوداً ليستيقظ ويفيق من حلمه ، وصاح ورفع رأسه

فى نفس الوقت من الحوض ، وكان الرجل المسن ما يزال واقفاً إلى جانبه يصب على رأسه آخر قطرة من الجرة

فقال آسرحدون : « لقد تألمت كثيراً وأحسبنى قضيت فى تلك الآلام ردحا من الزمن »

فقال له الشيخ : « كلا لم يطل عهدك بالألم ، لقد غمست رأسك فى الماء ورفعته وانظر إلى الجرة ترَ بها بقية الماء فهل تدرى الآن ؟

فلم يحر آسرحدون جوابا ونظر إلى الشيخ نظرة ملؤها الرعب ، واسترسل الرجل الشيخ يقول : « أتدرى الآن أن ليللى هو أنت وأن الجنود الذين أعدمتهم هم أنت ؟ وليس الجنود فحسب و إنما الحيوانات التى ذبحتها وأنت تصيد ونهشت لحمها هى كذلك أنت ، ولقد جرى فى وهمك أن الحياة مقصورة عليك وحدك . ولكنى رفعت عن باصرتيك حجاب الوهم وجعلتك تدرك أنك باساءتك إلى الغير إنما تسىء الى نفسك ، والحياة واحدة فى الجميع ، وحياتك جزء من نفس هذه الحياة العامة ، وتستطيع فى ذلك الجزء من الحياة الممنوح لك أن تجعل الحياة أحسن أو أسوأ وتنميها أو تنقصها وتستطيع أن تسمو بالحياة فى نفسك وأن تحطم الحواجز التى تفصل حياتك عن حياة الغير ، و إذا أحببت للغير ما تحب لنفسك واعتبرتهم مثلك زاد نصيبك من الحياة ، وأنت تنقص حياتك إذا حاولت أن تزيدها على حساب الغير ، وتحطيم حياة الغير من وراء طاقتك ، وحياة من سفكت دماءهم ومثلت بهم قد اختفت عن ناظريك ولكنها لم تنعدم ، ولقد توهمت

أنك تطيل حياتك وتختزل حياتهم ولكن هذا ليس فى وسعك ، والحياة لا تعرف الزمان ولا المكان ، وحياة لحظة وحياة آلاف السنين وحياتك وحياة الكائنات جميعها خفيها وظاهرها متساوية متعادلة ، ومحو الحياة أو تبديلها غير ممكن لأن الحياة هى الشىء الوحيد الموجود »

ولما نطق الشيخ بذلك اختفى

وفى صباح اليوم التالى أصدر الملك آسرحدون أوامره بإطلاق سراح الملك ليلى والأسرى جميعهم ومنع عقوبة الاعدام

وفى اليوم الثالث استدعى ابنه اشور بانيبال وسلمه صولجان الملك وانطلق إلى الصحراء ليفكر فيما تعلمه ، وأخذ بعد ذلك يسيح فى المدن والقرى ويدعو الناس إلى معرفة أن الحياة واحدة وأنهم عندما يلحقون الأذى بأحد إنما يضرون أنفسهم .



لحن الشـــيطان

عن الروائى النمساوى فيليكس دورمان [١٨٧٦ — ١٩٢٨]

(هذه القصة قائمـة على واقعة حال حقيقية حدثت بين الموسيقار الكبير تارتينى وبين ابنة شقيق أحد الكرادلة ، وكان تارتينى قد تزوجها سراً)

فى صيف سنة ١٧١٤ أقام الموسيقار الكبير « فيراسينى » حفلة اجتمع فيها أشراف فينسيا لإطرائه والإعجاب بفنه ، وتبارى أعضاء مجلس الشيوخ وكبار الأعيان والأشراف فى امتداحه وإكبار شأنه والإشادة بفنه وأعلنوا أنه سيد رجال الفن قاطبة فى عصره

وكان الشاب الصغير يوسف تارتينى يمشى عائداً إلى مسكنه كسير القلب محفوفاً باليأس ، وكان يشعر بأن فى نجاح فيراسينى العظيم إهداراً لكرامته ، لأنه كان موسيقاراً مثله إلا أنه مجهول المكانة غامض الشأن تتقد فى نفسه نيران الطموح وهو صابر قلق ينتظر بزوغ نجمه وتألق شهرته

وكانت حبيبته الجميلة التى فرت معه من « أسيسى » وتركت فيها والديها وخطيبها وسمعتها الحسنة تحاول عبثاً أن ترفه عنه وتدخل السرور على قلبه ، وجرحه عطفها وحبها فدفعها عنه فى قسوة وخشونة ولم يحرص على أن يتسلى أو يطيب نفساً ، كان يريد أن يخلو إلى يأسه فى ظلمة لا تنيرها لمعة واحدة من لمعات الضوء ، فانسحبت مادلنا لومبارديني إلى

غرفتها غضبى مجروحة الإباء ، وبقى تارتينى وحيداً ، ففارقته البقية الباقية من شجاعته فارتمى على أرض الغرفة باكياً نادباً حظه لاعناً حياته وفشله

« كان يجب أن أصير معلماً من معلمى اللعب بالسيف أو جنديا أو قسيساً كما أراد والدى بدلا من أن أكون موسيقاراً ، وكيف أؤمل أن أعرف إلى جانب أستاذ مثل فيروسينى ؟ وأى جنون هذا الذى جعلنى أفكر فى الإقدام على إقامة حفلة فى نفس المدينة التى أقام فيها حفلته وفى نفس الأسبوع ونفس القاعة ؟ ولو كنت أعلم أن هذا الأستاذ هنا لجئت فى وقت آخر ، والآن قد أضعت نقودى بقدومى إلى هنا واستئجارى القاعة ، وقد أعلنت عن الحفلة ، ولقد ذهب كل ما كان معى وخاطرت بكل شىء ، فإذا فشلت فقد قضى على أنا ومادلنا ، يجب أن أعرف وأن أحرز نجاحاً »

ثم دعا الخادم وأمره باستحضار نبيذ قوى ، ثم أخرج قيثارته وشرع يجرب ، ولكن أنغام فيراسينى كانت لا تزال فى ذاكرته ، وكان عزفه فاتراً لا روح فيه وتافهاً فارغاً لا يعبر عن هم مبرح ولا انتصار باهر ولا قداسة سماوية أو روعة جهنمية ، كان مجرد عمل آلى واتباع للطرق المبتذلة المطروقة فتراخت يداه وهو يتامن اليأس ، وأخذ يبكى مثل الطفل الصغير وهو حائر قد التاث عليه أمره

وكانت الليلة من ليالى الصيف المبكر الذى أظل فينيسيا ، وكان المنزل قد خيم عليه السكون التام فلا تسمع فيه إلا صوت رشاش القوارب أو صوت إنذار يصعده أحد الملاحين ، ونفذت إلى الغرفة من النافذة الصغيرة أشعة ضئيلة منبعثة من نور الكواكب ، ومرت ساعات وتارتينى الصغير لا يزال

جالساً على كرسيه عاكفاً على التفكير فى حظه المنكود .

ثم هب عليه نسيم بليل وشعر بوجود أحد فى الغرفة ، فصعد طرفه فرأى زائراً غريباً كأنه قد برز من بطن الأرض ، كان هذا الشبح لا يكاد يظهر فى الظلام ، وكان لا يبدو منه سوى وجهه ، وكان نحيلا ذا شفة مقوسة ساخرة وعينين تشتعلان فى الظلام

— من أنت وماذا تريد ؟ ومن أين جئت إلى هنا ؟

— ليس لهذا أهمية ، ولم آت هنا لاقدم تقريراً عن نفسى وإنما جئت لألقى عليك بعض الأسئلة

وكان فى صوت هذا الدخيل من دلائل الهدوء وامتلاك النفس وقوة الشخصية ما جعل تارتينى يكظم غضبه

— أنت من الهواة ، وتريد أن تصبح موسيقاراً عظيما ذائع الصيت ؟

— نعم أريد ذلك كله

— ولكن عزفك فاتر ، وأنت تعزف بأصابعك ، ولا قلب ولا روح فى عزفك ، وليس من نصيبك تلك النغمة المختلجة الحيوية التى تهب الحياة للموسيقار ، وليس فى نفسك شىء مستعص على التعبير تحاول جهدك الافصاح عنه ، ولم تستحوذ على جوارحك بعد عاطفة غلابة ، ولذا لا تستطيع أن تستأسر نفوس الغير وتختلب ألبابهم ، ولقد أصغيت إلى عزفك فإذا به عزف طفل ناضب الشخصية ، وسيصفرون لك ويحقرون أمرك إذا اجترأت على الظهور ، وقد يكون خيراً لك أن تنهى حياتك الموسيقية باغراق نفسك فى إحدى الترع

فكان جواب تارتيني على هذا الكلام القاسي أنة مكتومة

— أقول أغرق نفسك في إحدى الترع ، إلا إذا اعتزمت أن تسلك طريقة تكفل لك الفوز

— تكلم

فأخذ الزائر يقول في بطء وتردد : « هل تريد أن تضحي لتنال النجاح دفعة واحدة وتصير رجلاً عظيماً موفقاً » ؟

— أنا مستعد لأية تضحية .

— حتى لأعظم تضحية ؟

— نعم

— اعلم أن الإنسان لا يكون له قلب الفنان إلا إذ فقد قلب الرجل ، أو بتعبير أوفى حتى يضرس قلبه بأنياب و يوطأ بالأقدام ، فهل تدع قلبك يسحق ؟

— أنا لا أفهم ما تريد

— لقد رأيت معك شابة صغيرة السن

— نعم هي حبيبتي

— أنا أحبها ، فهل تضحي بهذه الفتاة ؟

— ولكني أحب مادلنا وهي كذلك تحبني

— هذا هو ما يفتنني

— وماذا يحدث لها ؟

— ألم أقل لك إنى أحبها ، وعلت وجهه الشاحب الهزيل ابتسامة شيطانية ، وقال : ما عليك إلا أن تقول نعم أو لا والباقى سأنفذه ، وسأدبر أمرها ما دمت لا تعترض طريقى

— ولكنك تطلب منى تضحيه مخيفة

— أتريد أن تصير شهيراً أم لا

— نعم ، وتصبب على جبينه العرق البارد ، وتشبث بمقعده خوف السقوط ، وقال : على أننى لو وافقت فان مادلنا سوف لا توافق ، إنها تحبنى وقد تبعتنى برغبتها ، وستصير بائسة ، وستخافك إذا دنوت منها كما أخافك أنا الآن ، وستقاوم وسيكون كل مجهودك عبثاً

هذا ما على القيام به وسأعرف كيف أتغلب على مقاومتها ، ولقد تغلبت على كل امرأة حتى الآن

وعرت الشاب الصغير رعدة جعلته ينتفض من رأسه إلى قدمه ، ثم همس همساً لا يكاد يسمع : « أشعر بأنى أعطى حبيبتى ما دلنا للشيطان »

— ومن يؤكد لى أن هذه التضحية لا تذهب عبثاً ، وأنها ستكون فاتحة نجاحى ؟

— كلمتنى ، وهذا — وهنا سقط عند قدم تارتينى كيس من الجلد حافل بقطع العملة الذهبية ، والشىء الجوهرى هو أن غداً يوم انتصارك ، وسيظهر منك فنان ملهم مكان الصانع الفاتر ، وسوف لا تصحب ما دلنا معك إلى الحفلة ، وأطلب إليها أن تبقى فى المنزل لتصلى وتدعو لك ، واقفل

عليها غرفتها وأعطنى مفتاحها ، وفى الساعة التاسعة عندما تكون مقبلا على عزفك سأطرق غرفتها

فخبأ تارتينى وجهه بين يديه ، أية فكرة رهيبة هائلة ! بينما أنا أعزف ...

— نعم بالتأكيد ، بينما تعزف إذ ينكسر قلبك ويتصدع وتتفتح من قلبك الكسير زهرة الفن الصادق القرمزية ، والآن هل تضحى بمادلنا لقاء هذا الثمن أولا ؟

فقال تارتينى بتمتمة يسيرة غير مسموعة :

— نعم سأفعل

فاختفى الزائر كما جاء دون أن يسمع له ركزاً

اجتمعت أشراف فينيسيا فى قاعة « بلازو كليرجى » وكانت الأنوار تتلألأ وللثياب المزركشة حفيف ، وكانت المراوح تحرك الهواء فى رقة وقد غصت القاعة بأحاديث السمر وضحكات السرور والاستبشار ، ثم ساد الصمت فجأة وظهر على المسرح شاب نحيف مشرق الوجه بنور الوحى والإلهام وهو فى رداء أسود ، وكان عزفه فى أول الأمر عادياً محتجزاً ، وكانوا يصفقون له تصفيقاً معتدلا ، ولكن لما اقتربت الساعة التاسعة ، استولت عليه روح غريبة ، وكأنما اندلعت النيران من قيثارته فصارت نغماتها شديدة عاصفة جائشة بالوجدان متفجرة بالعواطف ، وصدع قلوب السامعين بألحانه الساحرة الباطشة وتجلت فى عزفه كل توسلات الحب وشفاعاته وهموم الموت ومراراته ، وكان يسرى فى أنغامه الموت واليأس والاحتقار الشيطانى الذى يفوق ما فى طوق القلوب البشرية

كان يبدو عليه أنه فى غيبوبة ، إذ كانت عيناه جاحظتين شاخصتين باستمرار إلى الفراغ ، وكانت ترتسم على وجهه معان مختلفة متغيرة ، كان يضحك وينتحب فى وقت واحد ، وقد بللت الدموع قيثارته ، وكان يغمغم غمغمة غير مفهومة ويعزف ، ولم يعرف أحد ما هو صانع ، وإنما كانوا يحسون أنهم يسمعون ألحاناً من بدائعه ومبتكراته ، وكانت أنغامه ترتفع وتسمو ثم تهوى وتنتشر مثل أسراب بنات الجان الخبيثة بضحكتها الصارخة الساحرة الداعرة ، وكان يدوى بين القطع المحزنة لحن من السرور الشيطانى والألم الدامى .

وبينما كان الجمهور يحملق فى هذا الفنان تراءت لعينه صورة الغريب يدخل إلى غرفة مادلنا وهى راكعة تصلى ، وكان يسمع صراخها «الشيطان» . ورأى الغريب يجذبها وهى تقاوم إلى النهاية ثم تقضى نحبها من المرارة والخوف فى أحضان هذا الرجل الذى أسلمها هو إليه متجراً بها لنجاحه وشهرته .

ثم اشتعل قلبه وغلت مراجله وتقلص وشعر بأن مخالب الشيطان واقعة به وأنها مزقت صدره فصرخ وسقط مغشياً عليه فوق الأرض فارتفع صوت فزع من الجمهور المسحور ونسى فيروسينى الموسيقار العظيم وارتفعت أصوات « تارتينى » المقدس ! ، « تارتينى » العظيم ! وغصت بها القاعة .

واجتمعت حوله أجمل نساء فينيسيا واجتهدن فى إنعاش الموسيقار الذى جاد على فنه بروحه ، ولم يضن بها حتى خذلته قوته ، وعاد تارتينى فى زورق « موروسينى » النبيل إلى مسكنه الحقير القريب من حى اليهود ،

وكان قد تركه منذ ساعات وهو فنان مجهول وعاد إليه الآن تارتينى الشهير إمام الفن ومالك ناصيته .

وخيل إليه أنه قد مرت سنون على سفره ، وأخذ يزحف على السلالم من الكلال والاعياء ، وفكر هل يجد مادلنا على قيد الحياة رغم تدنيس شرفها ! وربما كان هذا الغريب الكهل المتوقد العينين الشيطانى الابتسامة والصلب الإرادة رجلا آخر غير الشيطان ! وكانت كل القصص الخرافية التى سمعها منذ طفولته تحوم فى عقله وهو يجهد فى صعود السلالم وقد كاد يغمى عليه من حمى النجاح وثورة العواطف والتعب ، ولا يجسر غير الشيطان على أن يقذفه بهذا الاغراء الفظيع الذى سول له بيع محبوبته !

ومثلت لعينيه الأنغام التى أثارها ، وكانت أنغاما مترنحة مغرية شيطانية !

ثم تقدم إلى غرفته فوجد على مكتبه خطابا فوقه شمعدان يشتعل ، وكان الخطاب مكتوباً بخط مادلنا وفيه !

« كان الكونت سكرابى صديق أسرتى القديم يخبرنى دائماً أنك وغد كسائر الفنانين وأنك مثلهم تشترى الشهرة بالحب قانعاً مسروراً فلم أصدقه وتبعتك ، وتسمعت خلف الباب لما حادثك ، وأنا أحتقرك ولا أريد أن أراك مرة أخرى .

مادلنا

حاشية — سيأخذنى الكونت سكرابى إلى والدى اللذين سيصفحان عنى للخطأ الذى غطى على بصرى وجعلنى أصغى لك وأتبعك ، فلتصبح عظيما وسعيداً إذا استطعت لقد كان حبى لك بمقدار ما انطوى لك عليه الآن من الاحتقار .

أزمة الاثراء

عن الكاتب المجرى كوزستولانى

لما اقترب منا كبير الخدم همس فى أذنى كورنيلياس استى الذى دعانى لتناول طعام العشاء معه :

— اعطنى سريعاً عشرين بنجوساً

فناولته إياها وقد عرانى بعض الدهشة ، فدفع الحساب وقال :

— إنه لشىء عجيب !

— ما هو هذا الشىء العجيب ؟

— قولهم « الأزمة الاقتصادية » وفى وسع الانسان أن يقول إن وفرة النقود هى التى أحدثت الأزمة ، وليس نقصها كما يتوهم الناس ... ، وأنت من هواة البحوث اللغوية ، فهل تعرف اصطلاحا معناه أن هناك ظروفا تكون فيها الثروة عبئاً ثقيلا ؟

— هناك التعبير الفرنسى « حيرة الإثراء »

— هل له نظير فى اللغة المجرية ؟

— لا

— شىء محزن وله دلالته ، ويظهر أن الحاجة إليه لم تنشأ بعد

ولما كنا عائدين إلى المنزل عند انبثاق الفجر ظل يتحدث فى هذا الموضوع وقال : نعم إن الأزمة المالية شىء بغيض ، ولكن حيرة الثراء كذلك شنيعة ، ثم أضاف إلى ذلك متنهداً « إنى أعرف ذلك حق المعرفة »

فصحت قائلا : « أنت » ؟

— نعم بلا ريب أنا ، لقد كان فى حوزتى مبلغ ضخم من المال

— أنت ؟ ومتى كان ذلك ؟

— عندما ظفرت بثروة

— ثروة ؟ أنت ؟

— نعم أنا حقاً ، فقد ماتت عمة لى بعيدة ، اسمها ماريا تريزا انسلم ، وكانت زوجة بارون ألمانى كان يعيش فى همبورج

— هذا أمر هام لم تخبرنى به من قبل

— لا . . . كانت سنى حينذاك تقارب الثلاثين ، ففى ذات يوم تلقيت بلاغاً عن وفاة عمتى ، وأنها تركت لى ثروتها جميعها ، ولم يكن ذلك غير منتظر ، ولكنى عجبت فى بادىء الأمر لأنى كنت أعتقد أن لها ابن أخ آخر ، وأن أملاكها ستوزع بيننا ، ولكن هذا القريب الآخر مات فى البرازيل . . . أمعك سيجارة ؟

— ها هى

— ذهبت تواً إلى ألمانيا ، وفى الحق أنى كنت أتذكر عمتى بصعوبة ، وقد صحبت والدى وأنا طفل عند ما ذهبنا لزيارتها ، وكانت تقيم فى منزل

أنيق ، ولها مزرعة تتمثل فيها الكفاية والنظام ، وظللت خمس عشرة سنة لا أسمع عنها شيئاً ، وعند تقدير ثروتها اتضح أنها أكثر مما قدرت ، فبعد أن بعت كل شيء واستنزلت قيمة الضرائب والرسوم والمصروفات القانونية دفع لى أحد مصارف همبورج مليونى مارك

— مليونى مارك ؟ كلام فارغ

— صحيح ! لنتحدث عن أشياء أكثر أهمية من ذلك ، كيف حال ضغط الدم عندك ؟

— لا تكن أحمق . استرسل . . .

— حسن ! لقد استبدلت الماركات بعملة مجرية ، ووضعتها فى صندوق وعدت إلى بودابست ولم أغير أسلوب حياتى ، واستأنفت قرض الشعر ، واحتطت فى الأمر ، فلم يعرف أحد شيئاً عن ثروتى ، لأن معنى ذلك القضاء على شهرتى شاعراً

— ماذا تعنى بذلك ؟

— ألا تستطيع أن تفهم ؟ إن الأمر جد واضح ، ماذا عسى أن يقول الناس عنى ؟ وأنت تعرف تصور الناس للغنى . . . ففى بودابست مثلا كل من له مال يعتبر إلى حد ما سخيفاً ، ولماذا يكون للغنى ذكاء وشعور وخيال ؟ أريد بذلك أنك تعلم تمام العلم ما يقولونه ، وهذا ضرب من الانتقام ، وهم لا يستطيعون أن يروا أن الطبيعة توزع المواهب والملكات توزيعاً لا ضابط له ولا قياس ، وبصورة تبدو خالية من الرحمة ، والطبيعة

لا تعرف العطف ، وهى تجود بالعبقرية على من لا يملكون فى الدنيا شيئاً آخر ، وكأنها تعوضهم عما فقدوا ، ولقد كنت ولا أزال بوهيميا ، وقد أكبرت تقاليد عشيرتى ، ولذا ظللت بعد أن عدت إلى بودابست ومعى الصندوق الملآن بالأوراق المالية أغشى ذلك المقهى الذى كنت من رواده ، وكنت أتظاهر بأننى عاجز عن دفع ثمن ما آكله ، وكنت أتعمد أن ألبس بنيقة متسخة ، وكنت أحدث قطعاً وتمزيقاً فى نعل حذائى الجديد ، وأنت تعذرنى ، فقد كانت شهرتى شاعراً مستهدفة للخطر

وفضلا عن ذلك فإن أسلوب حياتى الذى ألفته كان يشوقنى وتطيب له نفسى ، ولو عرف عنى أنى أحرزت ثروة لازدحم حولى الأصدقاء والأعداء وظلوا من الصباح إلى المساء يدقون جرس منزلى ، ويقرعون بابى ، وعز على أن أجد فرصة أخلو فيها بنفسى ، وأفرغ للكتابة والنظم

— ولكن ما ذا صنعت بعد ذلك بهذا المبلغ الجسيم ؟

— حسن ! كانت هذه هى المشكلة الكبرى ، وطبيعى أننى لم أجترىء على أن أضع لى رصيداً وأفتح حساباً بأحد المصارف ، لأن هذا كان يحرجنى وقد آثرت أن أخبئ الأوراق المالية فى درج مكتبى بين مسوداتى ومخطوطاتى ، وكنت أفتح الدرج فى كل مساء وأطيل النظر فى محتوياته ، وقد خالجتنى مشاعر مختلفة ، وباطل أن أدعى أننى لم أكن مسروراً به ، لأننى أحترم المال ، وأعرف معرفة تامة أن معناه الرغد والرفاهية والجاه والقوة وما إلى ذلك ، ولكن الاحتفاظ بمثل هذا المبلغ الضخم كان عبئاً ثقيلا ، وكنت

فى تلك الأيام كعهدك بى حزماً وعقلا ، فلم أقدم على شراء عربة ، ولم أهجر مسكنى القديم القذر إلى منزل آخر خشية أن أحمل مسؤولية جديدة ، وأنت تعرف كراهتى للرفاهية وخفض العيش ، وكنت أحب النبيذ الرخيص والسجاير الزهيدة القيمة ، وكذلك النساء الرخيصات

وبدأت أفكر تفكيراً هادئاً منطقياً ، وكان عملى هو الكتابة والتحرير ، وحتى فى تلك الأيام كنت أستطيع أن أجمع بقلمى مبلغاً مناسباً يكفى لأنفق منه ، وقد أضفت لهذا المبلغ مبلغاً آخر يمكننى من أن أعيش مستقلا مكفول الرزق طوال حياتى ، وأنا من أسرة ليست طويلة الأعمار ، وسمحت لنفسى بأن أعيش حتى الخامسة والستين ، وقد بلغ الراتب الذى قدرته للانفاق منه فى مدى ثلاثين سنة أربعة آلاف ريال ، وشعرت بأنى فى غير حاجة إلى المبلغ الباقى بعد ذلك ، ولذا صممت على توزيعه

— بين من ؟

— كان هذا هو المشكل ، فقد كنت وحيداً كما تعلم ، وليس لى أقارب ولا اتصالات

— ألم تفكر فى أصدقائك ؟

— لم يكن لى أصدقاء حينذاك ، ولم أكن قد لقيتك بعد

— هذا شعور طيب من ناحيتك !

— لم أكن بوجه عام أعرف إنساناً أعنى به وأعطف عليه أكثر من

عطفى على رجل الشارع المجهول ، وأرجو أن لا تسيء فهمى ، فلست من كارهى البشر ، ولا ممن يمقتون الناس ، وإنما أنا أراقبهم وأنظر إليهم بما يصح أن تسميه « الاستسلام الحزين » وخبرنى ماذا كنت تصنع لو كنت مكانى ؟

— أظننى كنت أصنع ما يصنعه كل إنسان فى مكانك ، وهو أن أهدى نقودى لعمل من أعمال البر والإحسان .

— هذا هو نفس ما خطر لى فى بادىء الأمر ، وقد مر ببالى ملجأ الأيتام وملجأ إيواء العجزة والمرضى وذوى العاهات ، ولكننى فكرت فى هؤلاء اللصوص الذين يختلسون أمثال هذه النقود التى توهب للفقراء ويشترون بها مجوهرات لعشيقاتهم ، وسرعان ما أعرضت عن ذلك ، و بعد ذلك داعبتنى فكرة جائزة أدبية على مدى واسع ، ويلزم أن أقرر أننى رحبت بهذه الفكرة وتعلقت بها زمناً ، ولكن سرعان ما نبذتها وتخليت عنها لعلمى أن اللجان التى يكل إليها توزيع مثل هذه الجائزة تنحرف عن القصد ، وتشوه الغرض الأصلى للجائزة ، فتمنح نقودى مجانين أدعياء ، وكان الإخلاص للأدب يقتضى قتلهم و إبادتهم ، وتعين على ظهور أدباء مزيفين وكتاب مقعدين ، وأبصرت بعين عقلى فصولاً مقدمة فى المباراة لنيل هذه الجائزة عن « تأثير الدراما اليونانية » وأدركنى اليأس والسأم عند ما تأكدت أن مثل هذا السخف المزرى سيظل ينتقل من جيل إلى جيل حتى آخر الزمن كأنه لعنة رهيبة متوارثة ، ولذا أبغضت هذه الفكرة

واجتويتها ، وعرضت لى فكرة إعانة الكلاب والأطفال وأنت تعلم أنى أكرههما كليهما .

— وعلى ماذا صممت فى النهاية إذن ؟

— صممت على أن أبدد نقودى بلا تدبر ولا حساب كما جاءتنى بغير تدبر ولا حساب، وتخيلت لى صورة الأمبراطور الرومانى المأفون على صهوة جواده ينثر النقود يميناً وشمالا بين الجماهير

— تريد أن تعطى كل من يلقاك نقوداً ؟

— لا لا أيها الكهل المسن ، إن الأمر لم يكن بمثل هذه البساطة ، ولو أننى فعلت ذلك لعرف مكانى وذاع خبرى ، وتكاثر على المتملقون والمنافقون ، ولما وسعنى أن أحتمل الجرائد والصحف والمجلات التى كانت تصورنى بقولها « المحسن المعروف » وكنت حريصاً على أن يظل الأمر سراً مكتوماً مهما كلفنى ذلك ؟

— وهل وفقت فى ذلك ؟

— نعم ولقد احتفظت لنفسى بمبلغ ٤٠٠٠٠٠ ريال ، وكان الباقى بعد ذلك للانفاق والتبديد هو مبلغ ١٦٤٠٠٠٠ ريال ، وكان علىّ — حسب تقديراتى — أن أنفق مبلغ ٥٤٠٠٠ ريال سنويا و ٤٥٠٠ ريال شهريا ، و١٥٠ ريالا يومياً ، وتسألنى كيف بدأت ، لقد كان الأمر فى ابتدائه سهلا هينا ، فبعد إنجاز عملى اليومى فى المساء كنت أستخرج عناوين أسماء أختارها بغير قصد من الدليل ، وأستحضر اذونات بريد كل إذن منها بمبلغ

١٥٠ ريالا وأ كتب عليها الأسماء بالآلة الكاتبة، وأرسلها لهؤلاء الأشخاص المجهولين ، وكنت أقوم بذلك غير عابىء أ كان الشخص الذى يرسل إليه إذن البريد غنياً أم فقيراً ، فقد كنت أترك ذلك للصدفة، وحدث مرة أنى أرسلت نقوداً لياسبر كونتز أحد الأغنياء المعدودين

وكان الذين يتلقون أذوناتى يدهشون فى بادىء الأمر ويعجبون من أمر هذا الشخص الخفى الذى يرسل اليهم النقود ويغدق الهبات ، ولكن بعد إعمال الفكرة كانوا يرجحون ان هذه النقود قد أرسلها اليهم أحد أقاربهم أو أحد ممن استدان منهم، و بعضهم كان يظن أن مرسلها أحد فاعلى الخير وصانعى المعروف ، ولا بد أنى قد بدوت لفريق آخر منهم فى مظهر القوة العمياء التى تخبط خبط العشواء ، أو الجنى الشقى ، أو الاله الموجود فى كل مكان والقادر على كل شىء ، والذى يرسل الخيرات والبركات ، ولكن شاء سوء الحظ أن ينكشف أمرى بعد انقضاء عام على ذلك

— أين ؟ فى مصلحة البريد ؟

— لا . لا . لقد كنت أ كثر حذراً من ذلك ، وكنت أستعمل الأولاد الصغار فى القيام بهذه المهمة ، وفى غالب الأحيان كنت أرسلهم من الريف ، وفى ذات يوم أرسلت نقوداً إلى أحد مخبرى الجرائد اليومية ، وكان قد سمع من قبل همساً عن تلك « الهدايا الخفية » وأنت تعرف ولوع الناس بالقيل والقال ، مهما عرضهم ذلك للخطر ، وقد أخرجه ذلك عن جادة العقل ، فأخذ يجمع المعلومات ، وينشر أحاديث بعض الذين تلقوا

هذه الهبات أو سمعوا عنها ، وأنشأ مقالا سخيفاً عنوانه « الغيث الذهبي » ونشر صورة فوتوغرافية للكتابة الظاهرة على الإذن ، وقد افتضح بذلك أمرى ، وان كانوا قد عجزوا عن رفع النقاب عن وجهى ، وأمسكت عن إرسال الأذونات ، واستلزم الموقف البحث عن أساليب أخرى أدق وأخفى

— حقيقة أنى لم أستطع أن أتبين غرضك ، ولماذا لم ترسل المبلغ جميعه إلى شخص واحد ليهدأ بالك ؟

— كانت تسهل إذ ذاك معرفتى

— لماذا لم تهبه المرأة التى أحببتها ؟

— لأن هذا ينطوى على إذلال لى ، وترى أننى سأحرص ما عشت على هذا الوهم ، وهو أن النساء يحببننى لشخصى ، ويظهر أنك لم تدرك غرضى بعد ، فقد استحوذت علىّ فكرة توزيع هذه النقود ، ولكننى كنت أود أن لا أوزعها طبقاً لنظرية « العدالة الإنسانية » أو امثال هذا الهراء ! وقد أردت أن أوزعها بطريق الصدفة ونوبات الحظ ، وتبعاً لخيالى ومجاراة لوهمى ، أو جرياً على قانون الطبيعة ، وهى أعظم وأعجب من قوانين الإنسان ، ولا أحسب الحياة منطقية ، ولا يود العقلاء أن تكون كذلك ، وقد شقّ على هذا العمل وحملنى هما ، فقد كان يضايقنى و يغضبنى أن يظل مثل هذا المبلغ الضخم فى درجى لا أنتفع به ولا ينتفع به غيرى

وعند ما كنت أعجز عن صرف راتبى اليومى كان يملأ نفسى الندم وتبكيت الضمير ، وكان عملى يزداد صعوبة يوماً بعد يوم ، وكان يحدث فى

بعض الأوقات أن يتجمع فى درجى مرتب أربعة أيام أو خمسة وكنت فى أمثال هذه الحالات أتحامق وأتباله ، وأتصرف بلا عقل ولا روية ، وقد ألقيت مرة ستمائة ريال فى قبعة أحد المتسولين ، وانطلقت أعدو فى الطريق ، ولكننى كنت لا أفعل ذلك إلا نادراً

— ولكن كيف تخلصت من نقودك بعد ذلك كله ؟

— بطرق كثيرة ، ولقد أصبح التخلص منها أصعب من الحصول عليها وحيازتها ، وأنا أمقت المبالغة ، ولكن يلزم أن أصارحك بأن الأمر كان يستدعى قوة وابتكاراً وبراعة وسعة حيلة غير عادية ، وقد عاقنى ذلك عن توجيه مجهودى جميعه لنظم الشعر ، فتأثر أسلوبى ، وفى ذات يوم كنت مسافراً ، ووقف القطار فى إحدى المحطات الكبيرة ، فنزلت منه وأكلت تفاحة ، واشتريت بعض المقانق ، وتحدثت مع النذل الذى كان يدفع أمامه مقصفاً صغيراً على عجلات ، وتريثت فى دفع الثمن حتى هم القطار بالسير ، فألقيت فى يد الرجل ورقة مالية كبيرة ، ووثبت إلى مكانى فى القطار واختبأت به وتركته يبحث عنى عبثاً .

وفى فرصة أخرى كنت فى أحد المقاهى ، فتركت ورقة مالية تحت الطبق الموضوع أمامى كأننى قد نسيتها ، ولم أجترىء بعد ذلك على الاقتراب من هذا المقهى، واشتركت فى المكاتب التى تعير الكتب ، وكنت أرود كذلك المكاتب الحرة ، وأترك أوراقاً مالية بين صفحات الكتب التى أستعيرها ، وفى بعض الأوقات كنت ألقى نقوداً فى الطريق أثناء

سيرى وأعدو بعد ذلك حتى يبهرنى الإعياء كأنى قد ارتكبت جرماً ، واتفق مرة أنى فعلت ذلك فعثرت على النقود سيدة ترتدى ثياب الحداد ، فعدت خلفى واقتفت أثرى حتى لحقت بى فأخجلنى ذلك وأخذت النقود من يدها ودسستها فى جيبى ، ونسيت كل شىء عن هذه المرأة الأمينة التى احتملت العناء من أجلى ، وأنت لا تتصور عند ماتتكاثر لديك النقود كيف تضيق بك الحيل ، وتشتبه عليك المسالك فلا ترى مذهباً لصرفها ولا وجهاً للتخلص منها

واستولى على بعد ذلك الملل وغلبنى الهم ، وفى لحظة من لحظات الغضب والحنق تخيلت أن هذه الأوراق الملعونة قد حرقت ، ولكن لم ألبث أن أخجلنى ذلك لأن معناه التنصل من الواجب وإهدار التبعة ، فعدت إلى عملى مكروباً محزوناً ، وكانت النقود غير المطلوبة تتكدس فى درجى ، وبعد ثمانية أشهر ظهر أن الحظ سيبسم لى ، فقد أصابنى ألم فى الأسنان فذهبت إلى أحد الأطباء وهو شاب صغير معتدل الأجر ، وأبصرت فى قاعة الاستقبال أربعة معاطف أو خمسة ، وهنا سنحت لى الفرصة ، ففى اللحظات التى كانت تغفل فيها العيون كنت ألقى بالنقود فى جيوب المعاطف المعلقة ، وكان يبدو أنى قد حللت المشكل وأن أزمتى قد انفرجت ، وظللت أياماً على ذلك واستراح ضميرى ، وكان المرضى يجلسون فى غرفة الانتظار وقد تلألأت عيونهم بالبشر والسرور وبرقت أسرة وجوههم ، وكانوا ينسلون إلى قاعة الاستقبال ويعودون دهشين ذاهلين ويحاولون نقل النقود من

معاطفهم إلى مكان أمين وحرز حريز ، وكانوا يخبئون وجوههم فى مناديلهم متظاهرين بأن عندهم ألماً شديداً فى أسنانهم لكى يستروا سرورهم

وكان بعضهم يذهب إلى القاعة من حين إلى حين وقد جرى فى وهمه أن هذا المظهر المعضل الغريب قد يتكرر مرة أخرى أو أكثر ، وكنت أدير النظر حولى فى خبث ومكر وأستمتع بلذة هذا الموقف ، ولكن شاءت الأقدار القاسية أن يكون سرورى قصير الأجل سريع الفناء

— ولماذا ؟ هل عرفك محررو الصحف ؟

— لا . وإنما استطارت شهرة طبيب الأسنان حتى اعتقد الناس أنه أبرع أطباء الأسنان وأقدرهم ، ومن ثم كثر قصاده حتى اضطر إلى أن ينظمهم صفوفا ويعطى كل فرد منهم رقماً ، وقد تسلمت رقم ٦٢٨ ولم أستطع أن أراه إلا بعد أسبوع أو نحو ذلك ، وكانت الفتاة — «السكرتيرة» — لا تسمح لى بالدخول ، ولذا تركته وبحثت عن ميدان آخر أجاهد فيه ، وكان علىّ أن أكون أكثر يقظة وأشد حذراً حتى لا يزول عنى القناع وينكشف السر

وفى بدء السنة الرابعة خطرت لى خاطرة ظريفة شمت الخير فى مخايلها ، فقد عرفت غلاماً وسيما باشر النشل مدة خمسة أعوام فتلقيت منه دروساً وأعترف أنها كانت دروساً قاسية مؤلمة ، وفى أولها أخذ يمد أصبعى السبابة وجعل مفاصلها مسترخية حتى صارت فى طول أصبعى الوسطى ، وأنت تعلم أن النشالين لا يستعملون سوى هاتين الأصبعين ، ولما أتممت برنامج الدراسة شرعت فى العمل وهان علىّ عسيره

وكنت أعمل بجرأة وغير مبالاة ، وفى موسم القديس استفان ، وقد أقبل الكبراء والأعيان من كل فج ليشتركوا فى الاحتفال مرتدين أبهج الحلل وفاخر الثياب ، وفقت فى أن أدس مبلغ ١٥٠٠ ريالاً فى جيب رداء رئيس الوزراء وخمسين ريالاً أخرى فى قبعته الكبيرة الخاصة بالاحتفال ، وعندما زار مدير بنك انجلترا بودابست وكنت أحد الذين قدموا له فى الاستقبال عنت لى فرصة لأزيد ثروته مائة ريال

ولكن أمثال هذه الفرص الذهبية الثمينة كان نادراً ، وكنت أتلبث وأتلكأ فى الأماكن المزدحمة مثل أماكن لعب كرة القدم ومتنزهات التسلية وعربات الترام والسيارات

وفى أمسية أحد الأيام السعيدة بينما كنت أرتاض فى بعض المتنزهات نُشلَ من جيبى مبلغ ألف ريال ، واسترحت من العمل فى هذا اليوم ورحبت بهذا التغيير وأصابتنى بعد ذلك نازلة كبرى

ففى ذات يوم — وكان ذلك فى شهر مايو وأنا أذكره جيداً — كنت جالساً فى الترام إلى جانب رجل طاعن فى السن وكانت له لحية فضية ؛ وكان يبدو سرى الهيئة محترم المكانة ، وكان موظفاً متقاعداً ، فأخذت ورقة مالية من جيبى وهممت بتحريك أصبعى لدسها فى جيبه ، فلحظ الرجل ذلك وضغط على يدى تحت ذراعه ، وصاح بى واستغاث بأحد الجنود ، ودعا السائق الجندى ولم يكن هناك فائدة فى الدفاع عن نفسى فقد قبض على متلبساً بالجريمة وكان هذا خاتمة المطاف



قصة بلا عنـــوان

(للروائى الروسى أنطون تشيكوف) [١٨٦٠ — ١٩٠٤]

فى القرن الخامس كانت الشمس تشرق كل صباح — كما يحدث فى العصر الحاضر — وتمضى كل مساء لتستجم ، وعند الصباح كانت أشعتها تقبل الانداء وتسترد الأرض بهجتها ورواءها ، و يفعم الهواء بترانيم السرور وأغانى الأمل ، وفى المساء كان السكون يلفها فى شملته وتغرق فى حنادس الظلماء ، وكانت الأيام تمر متشابهة الصفحات ، وتعدو الليالى بعضها فى أثر بعض متماثلة ، ومن الحين إلى الحين كان يدوى فى الأسماع عزف العاصفة وقصـف الرعد أو صوت تهاوى نجم غافل من أنجم الفلك أو أن راهباً شاحب الوجه ينطلق إلى رفاقه ليحدثهم عن نمر أ بصره على كثب من الدير ، وهذا جل ما كان يحدث ، ثم يمر اليوم مشبها أمسـه الدابر ، وكانت الرهبان تزجى الوقت بالصلاة والعبادة ، وكان أبوهم الأكبر يعزف على الأرغن ويقرض الشعر اللاتينى ويكتب فى الموسيقى ، وكان لهذا الكاهن العجيب الشأن براعة فى العزف تفوق المألوف ، فقد كان يعزف بلباقة وافتنان لا يستطيع معهما أكبر الرهبان سناً والذين أضعف وقر الشيخوخة حدة أسماعهم أن يمنعوا انحدار الدمع من عيونهم عند

تدفق أنغام الأرغن من صومعته ، وكان إذا تحدث عن أى شىء — حتى عن الأشياء العادية المألوفة — مثلا عن الأشجار وضوارى الوحوش — لا يستطيعون أن ينصتوا لحديثه دون أن تعلو وجوههم الابتسامات المشرقة أو تنهل من مآقيهم الدموع المترقرقة ، وكان يخيل إليهم ان الأوتار ترتعش وتهتز فى داخل نفسه كما تضطرب فى الأرغن

وكان إذا استولى عليه الغضب أو استفزه الطرب أو شرع فى الحديث عن شىء مرهوب أو شىء جليل الشأن يتنزّل عليه نوع من الوحى فتمتلىء عينه بالدموع الحارة ويحمارّ وجهه وتدوّى نبرات صوته ، وكان الرهبان يشعرون وهم يستمعون إليه وقد اختلب ألبابهم بأن وحيه قيد أرواحهم وعقلة نفوسهم وكانوا يحسون فى أمثال تلك اللحظات الفاخرة المتجلية أن له على نفوسهم سيطرة غير محدودة ، وأنه لو أمرهم بإلقاء أنفسهم فى اليم لخفوا سراعاً تلبية لطلبه ونزولاً على أمره

وكان لهم من صوته وأرغنه ومن شعره فى تمجيد الله والسماء والأرض نبع سرور لا ينضب ، وكانوا يسأمون فى بعض الأوقات تلك الحياة المتشابهة الراتبة ، ويملون رؤية الأشجار والأزهار والربيع والخريف ، وتعافُ أذانهم هدير البحر ويؤلم أسماعهم سجع الأطيار ، ولكن لم يكن لهم غنى عن فن الأب الأعلى المتفوق الموهوب ، وكان لازماً لهم لزوم الغذاء اليومى

وتصرمت أعوام وهم يعيشون على هذه الوتيرة ، فكل يوم يمر يشبه سابقه ، وكل ليلة تكر تماثل الفائتة ، ولم يكن يدنو من الدير إلا الطيور

وضوارى الوحوش وكان بينهم و بين أقرب مسكن بشرى مسافات متطاولة ، ولا بد للوصول إليه من طى مسافة تزيد على السبعين ميلا فى الصحراء ، ولم يجترىء أحد على الضرب فى تلك الصحراء إلا الذين نبذوا الحياة وزهدوا فيها وقصدوا إلى الدير كما يتيممون القبر .

وفى ذات ليلة من الليالى اشتد تعجب الرهبان وعرتهم الدهشة إذ طرق باب الدير رجل يدل منظره على أنه من البلد المجاور وأنه من المفتونين بحب الحياة ، وقبل أن يؤدى الصلاة و يلتمس بركات الأب الأسمى طلب نبيذاً وطعاماً ، ولما سألوه عن سبب قدومه من البلدة إلى الصحراء أجاب بقصة طو يلة جاء فيها أنه خرج للصيد وأمعن فى الشراب فضل طريقه ، ولما رغبوه فى دخول الصومعة والانخراط فى سلك الرهبنة أجابهم باسما « لست أصلح رفيقاً لكم » !

ولما تملأ من الأكل والشراب أخذ يحدج ببصره الرهبان الذين قاموا على خدمته ، ثم هز رأسه هزة لوم وتأنيب واندفع يقول « أنتم يا معشر الرهبان لا تفعلون شيئاً سوى الاقبال على الأكل والشراب ، فهل هذا هو طريق تخليص روح الانسان ؟ فكروا ملياً وضعوا نصب أعينكم أنكم تقيمون هنا فى ظلال الراحة والهدوء ، وتأكلون وتشربون وتحلمون بالغبطة والسعادة على حين يتردى جيرانكم فى المهالك و يقعون فى مقابض التلف و ينساقون فى طريق الجحيم ، و ينبغى لكم أن تشاهدوا ما يحدث فى المدينة، هنالك يتضور الكثيرون جوعاً فى حين لا يعرف الآخرون ماذا يصنعون

بذهبهم فيتهالكون على الفجور و يسرفون فى التهتك حتى يلحقهم الهلاك كالذباب الذى يلتصق بالعسل ، وقد انطفأت فى قلوب الناس شعلة اليقين واقفرت نفوسهم من الايمان ، فعلى من يجب ارشادهم وهدايتهم ؟ ليس هذا من واجبي وأنا حليف النشوات والعاكف على الخمر من صباح اليوم إلى مسائه ، فهل وهبكم الله النفس الوديعة الصالحة والقلب العامر بالحب وصادق اليقين بالله لتستطيبوا الراحة وتقبعوا هنا بين الجدران الأربعة وتتركوا الأمور تجرى فى أعنتها ؟

وكانت كلمات الرجل جارحة متوقحة وغير لائقة ولكنها أثرت تأثيراً بالغاً فى نفس الأب الأعلى ، فتبادل النظرات مع الرهبان وقد امتقع لون وجوههم وقال « يا اخوانى ، إنه ينطق بالحق ، وأنتم تعلمون ذلك ، والواقع أن الفقراء والمساكين وأبناء السبيل يتورطون فى الرذيلة والكفر لشدة ضعفهم ونقص عقولهم ، فلم لا أذهب إليهم وأذكرهم بالمسيح الذى نسوه ؟ »

ونالت كلمات الرجل من نفس الكهل ، ففى اليوم التالى انطوى على عكازه ، وودع رفقاءه وقصد المدينة ، وترك الرهبان محرومين من أرغنه والاستمتاع بأحاديثه ورقاق شعره ، فأمضوا شهراً مقفراً مملاً ، وتلاه شهر آخر ، ولم يعد إليهم الأب الأعلى ، وأخيراً بعد انقضاء ثلاثة أشهر سمعت ركزة عكازه ، فنفرت الرهبان لاستقباله وأحاطوا به ، وانهالوا عليه بالأسئلة فلم تبد عليه علائم السرور لرؤيتهم ، واسترسل فى البكاء ، ولم ينبس بكلمة ، ولاحظ الرهبان أن شكله أصبح يدل على فرط التقدم فى الشيخوخة وعلو

السن ، وأن جسمه قد نحف وهزل ، وظهرت على وجهه أمارات الإعياء الشديد والحزن العميق ، وكان يتبدى عند بكائه فى صورة الرجل الذى امتهنت كرامته وجرحت عزته .

بكى الرهبان لبكائه ، وأخذوا يتحدثون إليه فى رفق وعطف وسألوه عن سبب بكائه وشديد حزنه ، ولكنه خلا بنفسه فى الصومعة سبعة أيام صام فى خلالها عن الأكل والشرب ولم ينقطع عن البكاء ، وهجر أرغنه، وكان يقابل توسلات الرهبان وطلبهم مشاطرته فى أحزانه بصمت دائم وإعراض .

وأخيراً سعى إليهم ، وجمعهم حوله ، وبدأ يحدثهم عما شاهده فى المدينة خلال الأشهر الثلاثة التى أمضاها بها ، وكان يبدو على وجهه الذى سالت به الدموع سيماء الحزن والغضب وكان وهو يصف رحلته من الدير إلى المدينة هادئاً تومض عينه ايماض السرور والارتياح ، وقال لهم إن شوادى الطير كانت تغنيه وتهتف له ، وانه كان يسمع خرير الجعافر ، وكانت آمال الشباب تجيش فى نفسه ، وكان ينظم الأشعار ويشعر بشعور الجندى الذاهب إلى المعركة وهو واثق من النصر ، وهكذا وصل إلى نهاية الرحلة وهو ينظم الأناشيد ويقرض الشعر والأحلام تتطاير حوله ولم يشعر بكلال ولا فتور .

ولما استطرد إلى الحديث عن المدينة وأهلها خفت صوته وتهدج ، واتقدت عينه وامتلأ حنقاً وغيظاً ، وقال انه رأى ما لم يره من قبل ، بل ما لم يجسر

على أن يبصره بعين التوهم ، فهنالك شاهد لأول مرة فى عمره الطويل قوة الشيطان وفتنة الشر وأدرك ضعف الإنسان ومهانته وحقارته وجبنه ، وقد ساقته المصادفات السيئة عند أول دخوله المدينة إلى منزل من منازل الفحش والرذيلة ، وكان بالمنزل خمسون رجلا مقبلين على الطعام وهم يتعببون النبيذ بكثرة تفوق الحد ، ولما قرعتهم حميا الكأس شرعوا يغنون بصوت مرتفع ويتلفظون بألفاظ مثيرة مكروهة لا يجترىء من يخشى الله على النطق بها ، وكانت حريتهم المطلقة وفرط ثقتهم بأنفسهم وما ينعمون به من سعادة ينفى عنهم الخوف من الله ومن الشيطان ومن الموت ، وكانوا يذهبون إلى حيث تقودهم شهواتهم وترمى بهم أهواؤهم ، وكان النبيذ صافياً يلمع لمعان الذهب الوهاج ، ولا بد أنه كان لذيذ المذاق كثير الحلاوة فواح الشذى ، فقد كان كل من احتسى منه يمتلىء طرباً ومرحاً ويغرب فى الضحك ويحاول الاستزادة من الشراب ، وكأن النبيذ كان يجازى الابتسام بالابتسام فكان يزداد إشراقاً ولمعاناً عند ما كانوا يملأون منه الكؤوس كأنه كان يشعر بالفتنة الشيطانية الكامنة فيه

ثم استشاط غضبه واسترسل فى وصف ما رآه ، قال : ان امرأة كانت تقف على مائدة وسط هؤلاء الفجار وجسمها نصف مكشوف ، وكان يعجزك أن تجد امرأة أنضر منها حسناً وأشد فتنة ، وكانت تلك الأفعى فرعاء دعجاء سمراء البشرة غليظة الشفتين ناضبة الحياء شديدة القحة ، وكانت تتضاحك عن ثغر شتيت كأنها تقول « ان جمالى ليس له نظير وليس يندى لى من

الحياء جبين » ، وكانت تشرب النبيذ وتغنى بغير مبالاة وتمنح نفسها كل من تنازعه نفسه إليها

ثم هز الرجل ذراعيه غاضباً وأخذ يصف أماكن سباق الخيل وقتال الثيران والمسارح وغرف المصورين التى يرسمون فيها النساء العاريات أو يصنعون لهن تماثيل من الطين ، وكان يتحدث ببلاغة ساحرة ملهمة كأنه يضرب على أوتار غير منظورة ، وكان الرهبان قد جمدوا فى مكانهم من شدة الاصغاء وكانت كلماته تقع منهم مواقع الماء من ذى الغلة الصادى وقد بهر السرور أنفاسهم

و بعد أن وصف لهم مباهج الشيطان ، وروعة الشر ، وفتنة جمال المرأة الرهيب المخيف استنزل اللعنات على الشيطان وعاد إلى صومعته وأوصد عليه الباب

ولما خرج من صومعته إلى الدير فى صباح اليوم التالى لم يجد فى الدير أحداً من الرهبان ، كانوا كلهم قد فروا إلى المدينة



شخصية غامضة

(للروائى الروسى انطون تشيكوف)

فى إحدى عربات الدرجة الأولى من قطار السكة الحديد جلست على المقعد الأرجوانى الوثير سيدة حسناء متكئة بعض الاتكاء ، وكان ترعش بين أصابعها المضمومة مروحة نفيسة ناعمة الملمس ، وكانت نظارة من النظارات التى تشبك بالأنف لا تنى تسقط من فوق أنفها الأقنى ، وكان دبوس من الماس يصعد ويهبط فوق صدرها كالزورق على متن المحيط

وكان يجلس على مقعد أمامها كاتب إحدى اللجان الريفية ، وهو شاب فى مقتبل العمر ومؤلف ناجم ، نشر طائفة من القصص المطولة عن حياة الطبقة الراقية فى كبريات الصحف الريفية ، وكان يتأمل وجهها وينظر إليه نظرة المجرب الخبير والباحث فى خفايا النفوس ، وكان يراقبها مراقبة دقيقة ليتعرف طبيعتها ويقف على كل لون من ألوان أخلاقها الشاذة الغامضة ، وكان يخيل إليه أنه يجيد فهمها ويستطيع أن يسبر غورها فنفسها أمامه سر مفتضح ولغز مكشوف

قال لها وهو يقبّل يدها قرب السوار : « آه أنا أفهمك وأعرف دخيلة نفسك ، إن روحك الحساسة الملبية تحاول أن تتخلص من ورطة . . . .

نعم إن المعركة رهيبة ولكن تشجعى فالنصر لك ! نعم النصر لك !

فأجابته الحسناء بابتسامة حزينة « أكتب عنى يا فولدمار فإن حياتى حافلة منوعة ، وأنا قبل كل شىء عاثرة الحظ ، أنا نفسى متألمة معذبة فى إحدى صفحات روايات دستوفسكى ، فاكشف الستار عن روحى للدنيا ، وصف يا فولدمار هذه الروح التى خانها الحظ وأساءت إليها الحياة ، أنت عليم بأسرار النفوس فإنه لم يمض على لقائنا فى القطار ساعة وها أنت عرفت ما فى قلبى ! »

خبرينى أرجوك ! خبرينى !

فأجابته « أعرنى سمعك ، كان والدى كاتباً رقيق الحال فى خدمة الحكومة ، وكان طيب القلب ولا يخلو من ذكاء ، ولكن روح العصر والبيئة — كما تعرف — ولذا لا ألوم والدى لأنه كان يشرب الخمر ويلعب القمار ولا يعف عن الرشوة .... أما والدتى ... ولكن لماذا أطيل الحديث، فإن الفقر والكدح لأجل القوت والشعور بالمهانة ..... آه لا ترغمنى على أن أفضى إليك بكل شىء ، وأنت تعرف التربية الثقيلة المملة فى المدرسة الداخلية وسخافة قراءة الروايات ، وهفوات الشباب الباكر ، وأول خدع الحب وضياع الثقة بالنفس ! آه أنت مؤلف وتعرفنا نحن النساء ، وأنت ممن يفهمون ولا تغيب عنك شاردة ، ولسوء الحظ بليت بطبيعة حادة فتطلعت إلى السعادة ، وأية سعادة ! شاقنى أن أطلق العنان لنفسى ، نعم رأيت أن سعادتى فى ذلك ! »

فجمجم المؤلف لنفسه « لله درك » وقبّل يدها من السوار قائلاً « أنا لا أقبّل يدك و إنما أقبّل شقاء الإنسانية »

« آه يا فولدمار كنت تواقة إلى المجد والشهرة والنجاح ، — ولماذا أتظاهر بالتواضع — مثل كل إنسان يشعر بأنه فوق المستوى العادى ، وكنت أتلهف على شيء أسمى مما ألفه الناس وأكثر من نصيب المرأة ! سنح لى إذ ذاك فى طريقى قائد كبير السن ميسور الحال ، إفهمنى يا فولدمار وكانت تضحية وكان تنازل ! يلزم أن ترى ذلك، لم أستطع أن أفعل شيئاً آخر ، وأمكننى أن أعيد إلى الأسرة مركزها وأن أسافر وأن أصنع الخير وأسدى المعروف ، ولكن مع ذلك كان عناقه بغيضاً إلى نفسى ولو أنى لا أغمطه حقه فقد جاهد بنبل فى صدر حياته ، وكانت هناك لحظات رهيبة ، ولكنى كنت أتصبر وأحتمل لعلمى أنه لا يلبث أن يموت وأستطيع بعد ذلك أن أعيش كما أريد وأمنح نفسى الرجل الذى أعبده وأكون سعيدة إلى جانبه وهذا الرجل موجود يا فولدمار ! »

وجعلت تحرك مروحتها فى عنف ، وارتسمت اللوعة على محياها ، استطردت تقول : « وأخيراً مات الرجل وترك لى شيئاً وأصبحت طليقة كالعصفور ، أليست الآن ساعة سعادتى يا فولدمار ! جاءت السعادة تقرع نافذتى بخفة ورشاقة ولم يكن على إلا أن أفتح لها وأدخلها . ولكن أرجوك يا فولدمار أن تحسن الإصغاء ، حان الوقت الذى أسلم فيه نفسى للرجل الذى أحبه وأصير شريكته فى الحياة وأنصر مثله العليا ، وأجد السعادة

والراحة إلى جانبه ، ولكن ما أقبح الحياة وما أقذرها وما أتفهها ! ما أخس الحياة يا فولد مار ! أنا تعسة تعسة تعسة ! أخيراً قامت عقبـة في سبيلى ، ورأيت السعادة بعيدة عنى مجانبة لى فليتك تدرى ما مسنى من ألم ! »

فقال فولدمار : « ما الذى يقف فى سبيلك ، أتوسل إليك أن تخبرينى ! » .

فأجابت : « قائد آخر متقدم فى السن ولكنه ميسور الحال ... »

وكانت المروحة المكسوة تستر وجهها الصبيح ، والمؤلف يعتمد جبينه المثقل بالتفكير على قبضة يده ويفكر تفكير المتعمق فى علم النفس ، وكان القطار يصفر وقد نضحت أستار العربات بحمرة وهج الشمس المائلة إلى الغروب .



حلم نورسكا

مترجمة عن لفكاديو هيرن [١٨٥٠ — ١٩٠٤]

منذ ستمائة سنة كان يعيش فى مدينة «يوجى» من أعمال « ياماشيرو » شاب من رجال الجندية اسمه « أتو نورسكا » وكانت سلسلة نسبه تتصل بعشيرة « الهيكا » ، وكان أتو حسن الصورة رضى الأخلاق على حظ وافر من التهذيب ، جيد الخبرة بفنون الحرب والفروسية ، ولكن أسرته كانت رقيقة الحال ، ولم يكن له نصير بين سراة الجندية ، ولذا كانت آماله ضيقة محدودة ، وكان يعيش عيشة هادئة ، مكرّساً حياته لمطالعة الأدب ولا صديق له سوى القمر والريح كما يقول راوى القصة اليابانى .

ففى مساء يوم من أيام الخريف كان يسير منفرداً بجوار تل « كوتو بيكياما » فأدرك فتاة كانت تسير فى نفس الطريق مرتدية بملابس فاخرة ثمينة وتناهز سنها الحادية عشرة أو الثانيـة عشرة ، فحياها أتو وقال « ستغرب الشمس عما قليل أيتهـا الآنسة ، والمكان موحش فاسمحى لى أن أسألك هل ضللت الطريق ؟» فنظرت إليه وقد تهلل وجهها وأشرق بالابتسام وأجابت مستنكرة : « إنى خادمة أشتغل فى الناحيــة المجاورة والمسافة التى سأقطعها قصيرة »

وتبين نورسكا من لهجة حديثها أنها خادمة فى منزل أسرة من الطبقة الراقية ، وأدهشه ذلك ، لأنه لم يسمع قط بوجود أسرة ذات جاه ونشب فى جوار الناحية ، ولكنه اكتفى بأن قال : « إنى عائد إلى يوجى حيث أقيم ولعلك تسمحين لى أن أصحبك فى الطريق فإن المكان منعزل وموحش » فشكرته بلطف وبدا عليها السرور بوعده ، وسارا معاً يتبادلان الحديث ، فتحدثت عن الجو وعن الأزهار والفراش والعصافير ، وعن زيارتها مرة لمدينة « يوجى » وعن مناظر العاصمة التى ولدت فيها ، ومرت اللحظات حلوة سعيدة وأتو ينصت لهذرها المستطاب ، وفى الفور عند منعرج الطريق دخلا مزرعة قد تكاثفت ظلال ألفافها الصغيرة وكان الظلام شديد الاعتكار عند وصولهما لأن الشمس غربت ولم ينفذ الوهج الذى خلفته خلال ظلال الأشجار المتدانية ، ثم قالت الفتاة وقد أشارت إلى حارة ضيقة متصلة بالطريق الرئيسى « سأذهب من هنا » فقال لها أتو اسمحى لى أن أرافقك إلى المنزل ، واتجه إلى الحارة معها وهو يقتحم لجة الظلام الدامس ويتحسس طريقه أكثر مما يراه بالعين ، ولكن الفتاة لم تلبث أن وقفت بإزاء بوابة صغيرة مصنوعة من خشب مشبّك لا تكاد تظهر فى الظلام ، وكنت تلمح أضواء المنزل خلفها ، وقالت الفتاة « هذه دار الأسرة النبيلة التى أخدمها ، وما دمت قد حدت عن طريقك فهل تتنازل وتشرف الدار لتستريح قليلا » ؟ فوافق أتو وسرته هذه الدعوة غير الرسمية ، وبدا له أن يستطلع أمر هذه الأسرة النبيلة التى آوت إلى

هذه القرية المنعزلة ، وكان يعرف أنه فى بعض الأوقات تعتزل الحياة أسرة من الأسر ذات النفوذ والجاه وتقيم فى ناحية قاصية مهجورة بسبب استياء الحكومة والاضطرابات السياسية ، وخيّل إليه أن تاريخ رب هذه الدار قد يكون من هـذا القبيل ، فلما ولج الدار رأى نفسه فى حديقة أنيقة متسعة ، ورأى صورة منظر طبيعى يشقه نهر متعرج وكانت الصورة مصغرة لا تكاد تبدو فى الظلام ، وقالت له الفتاة « تنازل يا سيدى الكريم وانتظر لحظة وسأذهب لأعلن تشريفك منزلنا وانفلتت مسرعة ، وكان المنزل رحيب الجناب قديم الطراز ، وكانت أبوابه المنحدرة غير مقفلة ، وكان هناك ستارة من الخيزران جميلة الصنع ممتدة على طول الرواق تحجب داخل المقاصير المضاءة ، وكانت تتحرك وراءها أشباح نساء ، ثم أخذ ينسجم فى أذنه عزف موسيقى سابحة فى سجو الليل ، وكان العزف رقيقاً لينا مستعذب الوقع حتى شك أتو فى صدق حواسه ، وألم بنفسه شعور هادىء ناعس وشاع فيها السرور والارتياح ، وأنصت للعزف وامتزجت فى نفسه الأفراح بالأحزان وأدهشه كيف تستطيع امرأة أن تجيد العزف إلى هذا الحد ، وبهت لذلك وذهل عن نفسه وكاد ينكر أنه يسمع موسيقى أرضية لأنه كان يحس دبيب السحر يسرى فى دمه .

ثم توقف العزف ، وفى نفس اللحظة رأى أتو الفتاة إلى جانبه وقالت له « يا سيدى تفضل واتبعنى إلى داخل المنزل » ، وقادته إلى الباب حيث خلع نعليه ، وقابلته عجوز ظنها ربة الدار قادمة لاستقباله والترحيب

به ، وسارت معه فى مقاصير وحجرات عديدة حتى انتهت إلى قاعة حسنة الإضاءة فى مؤخرة المنزل ، ثم تقدمت إليه — بعد أن أكثرت من تحيات الاحترام وكلمات الحفاوة — فى أن يتبوأ صدر المكان المعد للزائرين من ذوى الوجاهة والمقامات الرفيعة ، فأدهشته أبهة القاعة وجمال زخارفها ، وأحضرت الخادمة المرطبات ، ولاحظ أتو أن الكؤوس والأوانى التى وضعت أمامه فاخرة الصنع ومزخرفة بشارة تدل على سمو مكانة رب المنزل وجلالة خطره ، فازدادت دهشته وذهب به التعجب كل مذهب ، وأخذ يفكر فى من عسى أن يكون هذا النبيل السرى الذى اختار لنفسه هذه العزلة ، وما هى الحادثة التى أوحت إليه تلك الرغبه ، ولكن تدخلت بغتة المرأة العجوز وقطعت عليه سبيل تفكيره وسألته « لا أظننى مخطئة فى أنك أنت نورسكا » ؟

فأطرق نورسكا برأسه موافقاً ، ولم يكن قد ذكر اسمه للخادمة ، وعجب لأسلوب السؤال ، واسترسلت العجوز قائلة « أرجو ألا أكون قد أثقلت عليك بالأسئلة ، فإن عجوزا مثلى قد تكثر من الأسئلة دون أن يكون غرضها حب استطلاع غير لائق ، وقد تذكرت عند قدومك منزلنا أنى أعرف وجهك وسألتك عن اسمك لأبدد الشكوك قبل أن نأخذ فى مسائل أخرى ، ولدى شىء أود أن أفضى به إليك ، وهو أنك تكثر المرور من هذا الطريق ، وقد لمحتك فى صباح يوم من الأيام « ساما » الصغيرة وكانت سائرة فى الطريق ، ومنذ تلك اللحظة وهى تفكر فيك آناء

الليل وأطراف النهار والواقع أنها قد أطالت فيك التفكير حتى اعتلت صحتها واشتد قلقنا عليها ، ولذا اجتهدت فى معرفة اسمك ومحل إقامتك ، وكنت أهم بأن أرسل إليك كتابا لما قدمت منزلنا على غير انتظار مع خادمتنا الصغيرة ، والآن لا يمكننى أن أعبر عن سرورى بمرآك ، وأنى لأعده حادثة سعيدة إلى حد أنى أعتقد من فرط الابتهاج أنها غير صحيحة وهذا اللقاء لم يهيئ فرصته سوى كرم الاله « كامى » الذى يحكم عقدة الزواج السعيد ، وما دام الحظ السعيد المساعف قد ساقك إلينا فما أظنك تمانع — إذا لم يكن هناك عقبة فى طريق العقد — فى أن تسر قلب ساما »

فلزم أتو الصمت هنيهة ، وإذا كانت العجوز قد صدقته القول فإن فرصة نادرة قد سنحت له ، وليس يدفع فتاة من أسرة شريفة إلى الزواج باختيارها من رجل غامض الشأن ليس له فى الحياة نصير ولا خيل عنده ولا مال أقول ليس يدفعها إلى ذلك إلا عاطفة حب قاهر غلاب ، ولكن لم يكن من أخلاق أتو الشريف النفس استغلال ضعف المرأة ، وفضلا عن ذلك فقد كان يشعر بأنه قد أحدقت به من كل وجه غوامض ومعميات لا ينفذ فيها البصر ولا سبيل إلى جلاء أسرارها ، ولكن كيف يرفض الطلب ويتردد فى قبول هذا العرض ؟ فأطرق قليلا ثم قال « ليس هناك عقبة ، وبخاصة لأنى لم أتخذ بعد زوجة ولم أرتبط بفتاة أخرى ، وقد عشت حتى الآن مع والدى ولم يبحثا موضوع زواجي وأود أن تعرفى أنى شاب فقير لا نصير لى من الأشراف ، ولا أحب أن أغامر بالزواج إلا إذا عرضت لى

فرصة لتحسين حالتى ، أما عن طلب الزواج الذى شرفتنى كل الشرف بعرضك إياه على فلست أملك إلا أن أقول لك أنى أعرف نفسى غير جدير بأن أسترعى التفات فتاة نبيلة »

فضحكت العجوز وكأنما سرتها هذه الكلمات وأجابت « يحسن بك أن تؤجل الفصل فى الموضوع حتى ترى « ساما » وربما لا تتردد بعد رؤيتها ، تنازل وسر معى حتى أقدمك لها » ، وصحبته إلى قاعة للزائرين أكثر اتساعاً وبها معدات الحفلة ، وأشارت إلى صدر المكان وتركته لحظة منفرداً وعادت تصحبها « ساما » فشعر أتو عند أول رؤيته لها بهزة من الطرب تسرى فى أوصاله كالهزة التى غشيته فى الحديقة وهو يستمع إلى أنغام الموسيقى ، ولم يكن يحلم بأنه سيشاهد يوماً مثل هذا الجمال الرائع ، وكانت كأنما تنبثق منها الأنوار وتضىء ملابسها كما ينفذ ضوء القمر من خلال السحب ، وكان شعرها المرسل فى غير نظام يتماوج خلفها وهى تتثنى تثنّى أفنان الصفصافة الحانية وقد لاعبتها خطرات النسيم فى رونق الربيع ، وكانت شفتاها كزهر الخوخ وقد انتثرت عليه أنداء الصباح ، فبهت أتو من رؤيتها وحار فى أمره

ثم التفتت العجوز وهى تبتسم إلى الحسناء التى وقفت صامتة غاضة الطرف وقد تورد خدها حياءً وخفراً وقالت « أنظرى يا إبنتى ، فى اللحظة التى لم نكن نتوقع قدومه يأتى إلينا بدون دعوة ، ولم يتم ذلك إلا بمعونة الآلهة ، وأن تفكيرى فى ذلك يجرى عبرتى — وأجهشت بالبكاء — ولكن الآن — واسترسلت فى الحديث وهى تمسح دموعها بكمها — لم يبق لكليكما

إلا أن يهب نفسه للآخر ويشترك فى حفلة الزفاف إذا لم يكن هناك ما يعترض تلك الرغبة وهو ما أشك فيه »

فلم ينطق أتو ببنت شفة ، فقد خدرت رؤية الحسناء إرادته ، وعقدت لسانه ، ثم دخلت خادمة تحمل الآنية والنبيذ ومدت المائدة بإزاء العروسين وتبادلا العهود والمواثيق ، وكان أتو كأنه فى غمرة من الغيبوبة فقد كانت غرابة المكان وجمال العروس يذهلان لبه

ثم استفاض فى نفسه سرور لم يلق فيما لقيه مثله ، ولكنه أخذ يستفيق من دهشته رويدا رويدا ويسترد هدوءه المعتاد ، واستطاع بعد ذلك أن يتكلم بلا تردد وعب من النبيذ عبا واستخف بالشكوك التى ساورته وغالب الأوجال التى استبدت بمشاعره ، وفى أثناء ذلك ظلت الفتاة صامتة صمت ضوء القمر دون أن ترفع عينيها وكانت تجاوب فى حياء وابتسام عند ما يوجه إليها الحديث

وقال أتو للعجوز « لقد مررت بهذه القرية مرات كثيرة فى مشياتى المنفردة ، ولكن لم أعلم بوجود منزلكم الشريف ، ومنذ دخولى هنا وأنا أعجب لماذا أختار رب الدار النبيل هذا المكان الموحش لإقامته ... والآن وقد عقد لى على ساما فأنى أرى أنه من الغرابة بمكان جهلى اسم أسرتها الشريفة »

فلما قال ذلك تجهم وجه العجوز الحنون وأصفار لون العروس التى لم تكد تتكلم ، ولاح فى أساريرها القلق والألم ، وبعد دقائق قليلة من الصمت

أجابت العجوز « من الصعب أن نخبىء عنك سرنا أكثر من ذلك ، ومهما كانت الأحوال فانه يجب أن تقف على الحقيقة لأنك قد صرت واحداً منا ، فأعلم إذن ياسيدى أن عروسك هى إبنة « شجيرا كيو » القائد « السنامى كيمو » العظيم المنكود الحظ

وعند سماع هذه الكلمات علت أتو رجفة كأنما سرى فى عروقه الثلج فقد غبرت قرون على القائد السياسى العظيم شجيرا كيو وهو فى قبره ، وأدرك أتو فجاءة أن كل ما حوله — القاعة والضوء والمائدة — حلم من أحلام الماضى ، وأن كل الأشباح الماثلة لعينه ليست أحياء و إنما هى خيالات الموتى

ولكن بعد لحظة مرت هذه الرجفة لطيتها وعاوده السحر البهيج ورأى نفسه يرسب شيئاً فشيئاً فى قرارته ، ولكنه لم يشعر بخوف ، فان عروسه — و إن كانت قادمة من « يوجى » حيث ينابيع الموت الصفر — قد استحوذت على مشاعره وأخذت بمجامع قلبه ومن يتزوج شبحاً من الأشباح فلا بد أن يصير هو أيضاً شبحاً ، وكان أتو يؤثر لقاء الموت مرات لا مرة واحدة على أن يخون كلمتـه ويخفر عهده ، وكان لا يطيق أن يرى ظلا من الألم يعلو جبين هذا الوهم الجميل والحلم الفاخر البادى لعينه ، ومرت بنفسه هذه الأفكار والعواطف كومض البرق وتركته عاقد العزم على أن يقبل الموقف الغريب ويرضاه وأن يتصرف كما لو كانت ابنة شجيرا كيو قد اختارته فى عهد أبيها بعلاً لها

ثم قال متعجباً « لقد سمعت عن مصرع شجيرا كيو المحزن القاسى»
فأجابت العجوز «لقد كان حقيقة مصرعاً مؤلماً ، فقد قتل جواده بسهم فسقط عليه ، ولما طلب المعونة من أحد أصحابه الذين عاشوا فى ظلال كرمه و بره هجره فى وقت الشدة فأخذ أسيراً وأرسل إلى « كما كير » حيث عاملوه معاملة مخجلة وقتلوه فى نهاية الأمير ، واختفت زوجته وطفلته - ساما العزيزة — لأن أعداء الهيكا كانوا يبحثون عنهم فى كل مكان و يذبحونهم ذبحاً ، ولما جاءتنا أنباء مصرع النبيل شجيرا كيو لم تحتمل الوالدة هذه الصدمة ، فماتت ولم يبق أحد يرعى الطفلة سواى لأن أسرتها أبيدت عن آخرها ، وكان عمرها خمس سنوات ، وكنت أنا مرضعتها ، وبذلت ما فى وسعى لوقايتها ، وأخذت بعد ذلك تتقاذفنا الأسفار وترمى النوى بنا المرامى ، وليس من المناسب سرد قصة هذه الأحزان » الآن ثم كفكفت بوادر دمعها ومضت قائلة « سامح قلبى اللجوج الذى لا يقوى على نسيان الماضى ، وقد شبت الطفلة التى ربيتها وترعرعت وأصبحت ساما التى تراها الآن ، وكنا نعيش فى عصر الامبراطور الصالح تسكا كيرا ، فلله ما خبأته لنا تصاريف الأقدار ! ولكن مهما كانت الأحوال فقد ظفرت ساما بالزواج الذى يوده قلبها وهذا أعظم سرور وأجل نعمة . . . ولكننا الآن فى ساعة متأخرة من الليل . . . وقد أعددت غرفة لكما وسأتركـكما فى خلوة حتى الصباح »

وقامت وأزاحت الأستار التى تفصل قاعة الزوار عن الغرفة المجاورة ودعتهما اليها ، وانكفأت إلى حجرتها بعد أن زفت إليهما آيات التهانى

وأفاضت فى وصف سرورها ، وتركت أتو منفرداً مع عروسه فلما ساد السكون قال لها أتو « خبرينى يا حبيبتى متى وددت أن أكون لك زوجا ؟ » (كان كل شىء يبدو كأنه حقيقة لا ريب فيها حتى أمسك عن الشك فى هذا الوهم المنسوج حوله) فأجابتـه بصوت كهديل الحمامة « يا زوجى ويا سيدى الرفيع المقام ، رأيتك أول مرة فى معبد « أشياما » الذى كنت أزوره مع مربيتى ، وفى اللحظة التى صافح فيها ناظرى محياك تغيرت الدنيا فى عينى ولكنك لا تستطيع أن تذكر هذا اللقاء لأنه لم يكن فى حياتك الحاضرة وإنما كان منذ أزمان عريقة فى القدم ، وقد تنقلت بعد ذلك مرات عدة فى أطوار الحياة والموت وظهرت فى أجسام متعاقبة جميلة ، أما أنا فلم يتغير حالى ولم يتبدل جسمى لشدة إيثارى لك وحرصى عليك ، فياسيدى ويا زوجى العزيز لقد انتظرتك من بين العد العديد من الرجال الذين تهافتوا فى طوال الأعصر »

ولم يفزع الزوج عند سماع هذه الكلمات الغريبة ، بل لم يتطلب فى هذه الحياة أو فى كل أطوار حياته أكثر من أن يشعر بذراعيها تطوقانه وأن يمس سمعه صوتها وهى تلاطفه وتواسيه

ولـكن رنين جرس المعبد أذاعَ قدوم الصباح وجعلت العصافير تزقزق والنسيم يوسوس فى الأشجار وجاءت المربية العجوز وأزاحت الأستار وقالت لهما « لقد حان وقت الرحيل ويجب أن تفترقا فى ضوء النهار وإلا ساءت المغبة فتودعا الآن »

فتأهب أتو للرحيل دون أن يتكلم ، وكان يفهم مغزى هذا التحذير الذى نطقت به العجوز فهماً غامضاً ، وأسلم مقاليده للقضاء ، وكان يعرف أنه أصبح لا يملك من أمر نفسه شيئاً ، وصار لا يطلب إلا أن يرضى عروسه الخيالية ، ووضعت فى يده محبرة عليها نقوش عجيبة وقالت له « إن سيدي الشباب وزوجى من رجال الأدب فهو لا يحتقر هذه الهدية الصغيرة ، وهى قديمة وغريبة الصنع ، وقد كان أهـداها إلى والدى الأمبراطور « تـكا كيرا » ولهذا السبب أظنها نفيسة »

فرجاها أتو أن تقبل حمائل سيفه تذكاراً وكانت مطعمة بفصوص من الذهب والفضة على شكل زهر البرقوق وطائر العندليب

وجاءت الخادمة لترشده إلى الحديقة ، ومشت معه العروس وأمها فى الرضاع وشيعاه إلى الباب ولما نزل من السلالم وحياهما تحية الوداع قالت له العجوز « سنلتقى فى الثانية من سنى الدب فى نفس اليوم الذى جئت فيه هنا وفى نفس الشهر ، وهذا العام هو عام النمر فعليك أن تنتظر عشر سنوات وسوف لا نستطيع أن نلقاك هنا لأسباب ندع ذكرها الآن ، وسنذهب إلى جوار « كيتو » حيث يقيم الأمبراطور الصالح « تـكا كيرا » مع أبائنا وأكثر أسرة « الهيكا » وسيسر الجميع قدومك وسنرسل لك هودجا لانتظارك فى الميعاد المضروب »

وكانت النجوم تومض وأتو يمر من البوابة ، ولكنه لما انتهى إلى قارعة الطريق رأى أنوار الفجر منتشرة على مسافة أميال وراء الحقول

الصامتة ، وكان يحمل فى صدره هدية عروسه ، وكان سحر صوتها لا يزال باقياً فى أذنه ، ولولا هذا التذكار الذى لمسه بأصابعه فاحصاً مستخبراً لأغراه الظن بأن ذكرى الليل ليست سوى أضغاث أحلام نائم والحال أن حياته لا تزال فى قبضة يده ولما استوثق من أنه قد قضى على نفسه قضاء مبرما لم يخالجه أسف ولم تؤلمه سوى روعة الفراق وطول الزمن الذى يجب أن يطوى قبل أن تتجدد معالم الحلم ، عشر سنوات ! سيمر كل يوم من هذه السنوات طويل المدى بطىء الخطى !

وكان يعاود زيارة القرية الفينة بعد الفينة رجاء أن يطل اطلالة أخرى إلى الماضى ولكنه لم ير أثراً للمنزل لا فى الليل ولا فى النهار

ولما سأل أهل القرية ظنوه مسحوراً مذهوباً بعقله وقالوا إنه لم يقم أحد من السراة فى هذه النواحى ، وليست هناك حديقة كالحديقة التى وصفها وإنما كان هناك معبد بوذى عظيم قرب المكان الذى تحدث عنه ، ويمكن أن يرى المشاهد بعض أثاره ، فكشف أتو آثار المعبد وسط أجمة متكاثفة ورأى بها كتابة لم يستطع تفسيرها

ولم يحدث أتو أحدا بما رأى ، ولحظ أصدقاؤه وأقاربه تغيراً عظيما فى صورته وأحواله ، وكان يزداد على توالى الأيام نحولاً واصفراراً ، وقال الأطباء إنه غير مصاب بأى مرض من الأمراض ولكنه كان يتحرك كطيف الخيال ، وقد كان من طبعه التفكير والعزلة ، ولكنه صار الآن لا يعبأ بشىء ولا يسره ما كان يسره من قبل ، وهجر مطالعاته الأدبية التى كان يؤمل

أن ينال من ورائها الشهرة ، وظنت والدته أن الزواج قد يثير طموحه و يشحذ همته و يجدد رغبته فى الحياة فصارحته برأيها فقال لها أنه قد آلى على نفسه ألا يتزوج من الأحياء

وأخيراً جاء عام الدب وأقبل الخريف فلم يستطع أتو ان يتروض على عادته ولم يقو على النهوض من فراشه ، وكان الموت يخب إليه، ولم يعرف أحد سبب موته وكان ينام نوماً عميقاً طو يلا حتى كان يظن أنه قد قضى نحبه

وفى ذات مساء وضاح أغر بينما هو مغرق فى النوم إذ أيقظه صوت فتاة فلما استوى جالساً رأى إلى جانب فراشه الخادمة التى أرشدته منذ عشر سنوات إلى باب الحديقه المستورة ، وابتدرته بالتحية وتهلل وجهها وقالت له « إنى قادمة لأخبرك بأنك ستستقبل الليلة فى أوهارو قرب كياتو حيث المنزل الجديد ، وقد أرسل لك هودج » واختفت

فعرف أتو أن ساعته دنت وأنه سيسلم الروح عند غروب الشمس ، ولكن الرسالة سرته إلى حد أنه استطاع أن ينهض من فراشه و يدعوا والدته، ثم قص عليها لأول مرة قصة زواجه وأراها المحبرة التى أهديت له وطلب إليها أن تضعها فى أكفانه ولم يلبث أن فارق الحياة فدفنت معه المحبرة ، ولكن قبل الجناز اختبرها العارفون فقالوا إنها صنعت سنة ١١٦٩ وأن عليها طابع فنان عاش فى عهد الامبراطور تكا كيرا



فى الصومعة

(للكاتب الفرنسى أناتول فرانس)

(١٨٤٤ — ١٩٢٤)

وجدت صديقى جان فى الدير القديم الذى اتخذ من بوالى رسومه وعوافى أطلاله منزلا فى السنوات العشر الأخيرة ، وقد تلقانى بالبشر الهادىء ، بشر رجل قد تخلص من أسار الآمال البشرية والمخاوف والأوجال ، وصحبنى إلى حديقته غير المنسقة حيث تعود أن يشعل غليونه و يدخن فى كل صباح بين أشجار البرقوق المغشاة بالطحلب ، وجلسنا هناك على مقعد أمام منضدة واهنة لا تكاد تتماسك ، تحت حائط متهدم قد علته الأزهار من ناضر ومصوح ننتظر طعام الإفطار ، وكان ضوء السماء الماطرة يرتعش خلال أوراق أشجار الحور التى كان يسمع لها همس ووسوسة من جانب الطريق ، وكانت سحب شهب لؤلؤية تنجاب فوق رؤوسنا ، وكانت توحى إلى نفوسنا الحزن الناعم الرقيق ولكنه الحزن الذى لا يبل من دائه

وعاجت به الذكريات على سوالف أحواله ومواضى عهوده فسألنى عن صحتى وأحوالى ، ثم بدأ يقول فى صوت خفيض وقد تغضّ جبينه « إنى و إن كنت عادة لا أقرأ فان جهلى ليس موقى من المعرفه ، فقد علمت وأنا فى وحدتى هذه ونسكى الذى كنت تسخر به فى عهودك السابقة أقول علمت

من الصفحة الثانية من إحدى الجرائد السيارة بظهور نبي حكيم وحسن القصد إلى حد أنه يعلم الناس أن العلم و إجهاد الذهن هما المنبع الذى تتدفق منه كل الآلام التى تعانيها الانسانية ، وهـذا الرأى إذا كنت لا أزال أذكر الصواب — ذهب إلى أنه من أجل أن نجعل الحياة بريئة محبوبة فكل ما نحتاج إليه هو أن نطرح التفكير وننبذ تحصيل العلوم ، وأن السعادة الوحيدة فى الدنيا لا توجد إلا فى البر والإحسان النزيه ، وأن الأوامر والنواهى والحكم البالغة عيبها الوحيد هو أن قائلها قد عبر عنها فى أسلوب بارع و بيان رائع دون أن يراعى أن صدم الفن بالفن ودفع العقل بالعقل معناهما أننا نقضى على نفوسنا ونذهب ضحية ليفوز العقل و ينتصر الفن ، وأنت تنصفنى أيها الصديق الهرم إذا اعترفت معى بأنى لم أقع فى مثل هذا التناقض الذى يثير الإشفاق . وقد انقطعت عن الكتابة وأخليت بالى من الفكر كل الخلو منذ تحققت أن التفكير شر وأن الكتابة لعنة ، وقد وصلت إلى هذه النتيجة سنة ١٨٨٢ بعد طبع كتيب فى الفلسفة كلفنى الكثير من الآلام ونقدته الفلاسفة لأنه مكتوب بأسلوب ناصع أخاذ ، وحاولت أن أثبت فى هذا الكتيب أن الكون غامض غير مفهوم وغضبت لما قيل لى أنى بطبيعة الحال لم أفهمه ، وهممت بالدفاع عن كتابى ولكن عند قراءته عجزت عن أن أتبين معناه الحقيقى ، ووجدتنى غامضاً ملتبسا مثل أعظم فلاسفة ما وراء الطبيعة ، وأن الدنيا قد أساءت إلى وغمطتنى حتى لأنها ضنت على بشىء من الإعجاب الذى تتسخى به عليهم ، وقد منعنى

ذلك من التفكير فيما وراء الحس ، فانصرفت إلى علوم الملاحظة والتجربة ، ودرست علم التشريح ، ومبادئه راسية القواعد مستقرة الأصول فقد مضى عليها حتى اليوم ثلاثون سنة ، وقوامها أن نقيد ضفدعة بدبابيس على قطعة من الفلّين ثم نشقّها ونشرّحها لملاحظة القلب والشرايين ، ولكنى أدركت بعد زمن قصير أننا لو اقتصرنا على هذه الطريقة لاحتجنا إلى وقت أطول مدى من الحياة التى تهبها لنا الدنيا لكى نصل إلى سر الأحياء العميق الخافى ، وشعرت بغرور العلم الخالص الذى لا يضم بين أطرافه سوى جزء لانهائى الدقة من المظاهر ، ويشارفه من هذا الجزء عدد محصور من الروابط والصلات لا يكفى لخلق مذهب متين راسخ ، وفكرت دقائق فى أن أقذف بنفسى فى مناطق الحرف وميادين الصناعة ، ولكن رقة قلبى منعتنى من ذلك ، وليست هناك محاولة مهما اختلفت ضروبها يمكننا أن نقول عنها إنها سيأتى من ورائها من الخير أكثر مما يجىء من الشر ، ولقد كان كريستوف كولومبس يحيا حياة القديسين ويتشبه بالقديس فرانسيس ، ولا ريب فى أنه كان لايفكر فى كشف طريق جزائر الهند لو أنه علم أن كشفه هـذا سيكون سبباً لإراقة الدماء وأنه سيتمخض عن ذبح أمم عدة برمتها من ذوى الجلود الحمر ، وهم قوم مستوحشون غلاظ الأكباد ولكنهم يحسون الألم ، أو لو أنه علم أنه سيجلب إلى الدنيا القديمة — بسبب الذهب الذى يحمل إليها من الدنيا الجديدة — من الأمراض والجرائم والمنكرات ما كان مجهولاً من قبل ، وكنت أظهر النفور والامتعاض

عند ما كان ينصح لى بعض الأمناء المخلصين بأن أعنى بالأسلحة النارية والمفرقعات التى كسبوا من وراء الاتجار بها ثروات طائلة ، أثلت مكانتهم واستحالت شكوكى حقيقة فى أن الحضارة كما يسمونها إن هى إلا همجية علمية ، وحاولت أن أصير همجياً ، ولم تعترضنى صعوبات فى إبراز الفكرة من حيز الفكر إلى مجال العمل فى هذا الإقليم الصغير النائى الواقع على مسافة ثلاثين فرسخاً من باريز والذى يتناقص عدد سكانه تدريجياً، وأنت قد رأيت فى طريق القرية منازل خاوية على عروشها وقد بدأ العفاء يدب إليها ، وأكثر أبنـاء المزارعين ينزحون إلى المدن تاركين الريف الذى أصبحت أراضيه موزعة توزيعاً دقيقاً لايترك لهم وسيلة لتحصيل القوت .

ويظهر أنه قد حان الوقت الذى سيشترى فيه أحد رجال الأعمال البارعين هذه الأراضى جميعها وينشىء فيها الأملاك الواسعة والضياع الفسيحة وسيختفى من الريف المزارع الصغير كما يختفى الآن من المدن التاجر الصغير رويداً رويدا ، ولقد دفعت ستة آلاف فرنك واشتريت بقايا ذلك الدير القديم بسلمه الحجرى الأنيق والبرج المستدير وتلك الحديقة التى تركتها نهباً لعبث الزمن ، وهنالك أقضى أوقاتى فى مراقبة السحب السائرة فى السماء أو فى ملاحظة الحشائش وسيقان الجزر المستطيلة، وعندى أن هذا أجمل من تشريح الضفادع أو من اختراع نوع جديد من النسافات .

وعندما يكون الليل جميلا ساجيا وأكون مستيقظاً أحدق فى النجوم التى تصبّانى النظر إليها حتى نسيت أسماءها ، وأنا لا أرى زواراً ولا أفكر

فى شىء ، ولست أكد الفكر لأستميلك إلى عزلتى أو لأبعدك عنها .

وإنى لسعيد بأن أقدم لك عجة ونبيذاً وتبغاً ، ولكننى أصارحك بأن الأجمل بى والأحب إلى نفسى هو أن أقدم لكلبى وأرانبى وحمامى قوتها اليومى الذى يجدد نشاطها ويرد عليها قوتها وهى لا تسىء استعماله بتأليف رواية تشوش الذهن وتثير الخاطر أو بعمل كتاب فى التشريح يسمم الوجود ويبغض إلينا الحياة . »

وفى تلك اللحظة قدمت لنا بيضا وقنينة من النبيذ الأحمر الخفيف فتاة مليحة المنظر متوردة الخدين لها عينان زرقاوان مشرقتان ، وسألت صديقى جان هل هو يكره الفنون والآداب من صميم قلبه كما يكره العلوم ؟ فأكد لى قائلا « لا . إن هناك عنصراً من عناصر الطفولة فى الفنون ، وهذا العنصر يجرد العداء الشديد من سلاحه ، إنها ألاعيب أطفال ، والنحاتون والمثالون هم ملوثو الصور الجميلة وصانعو العرائس ، وهذا كل ما فى الأمر ، وأى ضرر فى هذا ؟ بل ينبغى لنا أن نعترف بالجميل للشعراء ، ولو لم يكن ذلك إلا لأنهم يستعملون الألفاظ بعد أن يجردوها من المعنى الجدى وسنبقى شاكرين لهم صنيعهم إذا كانوا لا يقبلون على هذا اللون من التسلية بجد وحماسة ، وإذا هو لم يتركهم شديدى الأثرة بائنى الصلف سريعى الغضب شديدى الغيرة والحسد كالممرورين المسلوبى الرشد ، وهم فى الواقع يترقبون أن يحصدوا الشهرة من وراء هذا الزخرف الباطل ، وعندى أن هذا وحده دليل لا ينقض على خبلهم وجنونهم ، لأن طلب الشهرة هو أعجب الوساوس التى تدور بالأذهان

المريضة وأبعثها على الضحك وأكثرها شراً وإيذاء ، ولا أستطيع إلا أن أرثى لهم ، والعمال هنا يغنون على المحراث الأغانى القديمة التى تغنى بها آباؤهم ، والرعاة وهم جالسون على جوانب التل يحفرون بأطراف سكاكينهم صوراً صغيرة من جذور خشب البقس ، وربات البيوت يصنعن من العجين أَرغفة فى شكل حمائم وقماري أيام الأعياد ، وهذه فنون بريئة لا عيب فيها ولا تسرى فيها سموم الكبرياء ، وهى سهلة هينة ملائمة للضعف البشرى ، وعلى نقيضها فنون المدن فانها تستلزم مجهوداً وكل مجهود ينتهى بالألم .

ولكن الذى يكرب إخواننا البشر ويمسخهم مسخاً ويشوههم أقبح تشويه هو العلم ، لأنه يوجد لهم علاقات بأشياء لا تتناسب مع قوتهم ، ويفسد كل شرائط الاتصال الحقيقى بين الانسان والطبيعة ، وهو يستحثهم على الفهم فى حين أنه من الجلى أن الحيوان خلق ليشعر لا ليفهم ، والعلم ينمى الذهن — ذلك العضو العديم الفائدة — على نفقة الأعضاء الأخرى النافعة التى نشترك فيها مع الحيوانات ، وهو يجعلنا نقاوم حب الاستمتاع باللذات التى نشعر بميل غريزى إليها ، وهو يؤرث همومنا ويشعل جمراتنا بمرهوب الأوهام ويرينا من المخاوف والمفزعات ما ليس له وجود إلا عن طريقه وبتأثيره ، وهو يثبت ضؤولتنا بقياسه الأجرام السماوية ، ويبين قصر حياتنا بنظره إلى قدم الدنيا ويكشف عن عجزنا لأنه يفضى بنا إلى الاشتباه فيما لا نستطيع أن نراه أو أن نلمسه ، ويظهر جهلنا لأنه يوقفنا على الدوام حيال المجهول ، ويجلى لنا شقاءنا بمضاعفة الأشياء التى تثير طلعتنا دون أن يمكننا من الإجابة عليها

ولست أقصر الحديث على بحوثه النظرية الخالصة ، فإننا عند ما ننتقل إلى التطبيق العملى نرى أن مخترعاته ليست سوى وسائل طريفة للتعذيب تدل على المهارة وآلات تقضى بالموت على أفراد الإنسانية التعسة الأسيفة .

زر أى مدينة صناعية أو انزل إلى منجم من المناجم وانظر تر من المناظر ما يفوق أشد ما يتصوره رجال الدين عن النار الموقدة وجحيم الآخرة ، ومع ذلك فإننا بعد إطالة التفكير يبدأ يخالجنا الشك فى كون إنتاجات الصناعة ليست أقل إضراراً بالفقراء الذين يصنعونها منها بالأغنياء الذين يستعملونها، ونتساءل أليس الترف هو أسوأ أمراض الحياة وعللها ؟ ولقد عرفت أقواماً من كل طبقة من طبقات المجتمع ولم ألق فى حياتى أحداً أصابه من البؤس وسوء الحظ ما أصاب سيدة من ذوات المكانة فى باريز ، وهى امرأة حسناء كانت تنفق على ملابسها خمسين ألفاً من الفرنكات كل سـنة وهذه حالة تفضى بصاحبها إلى مرض الأعصاب العزيز الشفاء »

ثم صبت لنا القهوة الفتاة القروية الحسناء ذات العيون الصافية وكانت تبدو عليها أمارات البلاهة القانعة .

فأشار إليها صديق جان بعنق غليونه وكان قد ملأه فى نفس الوقت وقال « انظر إلى هذه الصبية ، إنها تعيش على الخبز ولحم الخنزير المملح ، وكانت أمس تحمل حزماً من القش على المذراة . وإنك لتبصر الآن بقايا منها عالقة بشعرها وهى سعيدة ، وبريئة فى كل ما تفعل لأن العلم والحضارة

قد خلقا الخطيئة كما خلقا المرض ، وإنى لأدانيها سعادة لأنى مثلها خالى البال غافل عما مضى وما يتوقع ، فأنا لا أفكر فى شىء ولا أكد ذهنى أبدا ، ولا أقوم بعمل شىء ومن ثم لا أخشى التورط فى الخطأ ، وأنا لا أزرع حديقتى خشية أن أعمل عملا أجهل عواقبه . وترانى من أجل ذلك مستمتعاً بالصفاء وراحة البال »

فقلت له « لو كنت فى مكانك لما أمكننى أن أشعر بنفس الطمأنينة ، ومحال أن تكون قد نبذت الفكر ومحوته من نفسك كل المحو لتطعم الراحة الخالصة ، ولا تنس أننا مهما فعلنا فان الحياة هى العمل ونتائج الكشف العلمى أو الاختراع انما تخيفك لأنك لا تستطيع أن تقدر مداها ، ولكن اعلم أن أبسط الأفكار أو أيسر الأعمال الفطرية يتضمن كذلك نتائج لا يمكن استقصاؤها ، وإنك لتفرط فى الثناء على العقل واكبار العلم والصناعة إذا اعتقدت أنها تنفرد بحوك نسيج المصائر البشرية ، وكثير من الشباك تنسجها القوى اللاواعية ، وهل نستطيع أن نتنبأ بتأثير أصغر حصاة أزيحت من جانب جبل! إنها قد تؤثر فى مصير الانسانية تأثيراً أبلغ من طبع كتاب « المنهج الجديد » أو اكتشاف الكهرباء .

وليس ظهور الاسكندر ونابليون على مسرح الدنيا بالحادث الذى يمكن أن يرد إلى أسباب فكرية أصيلة مقصودة ، وليس هو كذلك من النوع العلمى ، ومع ذلك فان مصير الملايين من البشر قد تأثر بظهورهما واشتبك فيه ، وهل تظن أننا ندرى قيمة ما نعمله ومغزاه الحق ، وفى كتاب ألف

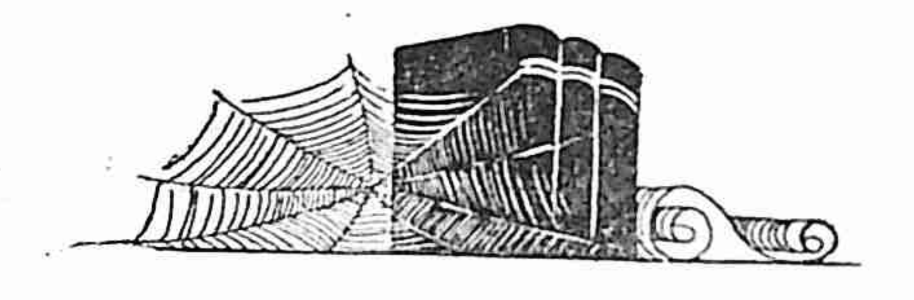
نيلة وليلة حكاية لا يمكننى أن أمسك عن تفسيرها تفسيراً فلسفياً ، وأعنى بذلك حكاية التاجر العربى الذى جلس وهو عائد من الحج إلى مكة على حافة عين جارية ليأكل بعض التمر ، وكان يرمى بنواه فى الهواء ، فحدث أن واحدة من هذا النوى قتلت مخلوقاً غير ظاهر — أحد أولاد الجان — ولم يكن ذلك التاجر التعس يحلم أن رمى النواة سيجر عليه ذلك ، ولما أخبر بهذه الجريمة انعقد لسانه من الخوف والذعر ، ولم يكن قد أعمل الفكر من قبل فى العواقب المحتملة لأى عمل نعمله ، فهل نستطيع أن نعلم إذا رفعنا سواعدنا اننا سوف لا نصفع جنياً فى الهواء كما حدث للتاجر ؟ ولو كنت فى مكانك لما استطعت أن أشعر بالراحة التامة ، ومن أدراك أن أقامتك الهادئة فى هذه الصومعة التى زاد فيها نمو اللبلاب وغيره من النباتات ليست عملا صادق التأثير وانها أبعد أثراً وأجل شأناً من كل كشوف العلماء وانها ستتمخض عن نتائج رهيبة مروعة فى مقبل الأيام » !

« هذا غير محتمل ولا مرجح »

« ولكنه غير مستحيل ، وأنت تعيش عيشة غريبة وتتحدث حديثاً غير مألوف يمكن أن يجمع ويطبع ، وهذا كاف فى ظروف خاصة ليكون منك بكرهك صاحب ديانة جديدة ، وقد يدخل فى ديانتك ملايين الناس فيمسهم منها الضر وترمى بهم مرامى الشقاء ، وقد يقتلون باسمك الألوف من اخوانهم البشر »

« ينبغى للانسان إذن أن يموت ليحظى بالبراءة ويظفر بالهدوء والسكينة »

« أعد النظر فيما تقول فان الموت عمل لا يمكن أن نحصر ما يأتى وراءه من المحتملات والممكنات » .



الغلام الأبكم

للروائى الاسبانى سيندالفو دى لافنت

كان يمكن أن يكون دون برناردو جوانزالز مستمتعاً بتلك السعادة الزائلة المتاحة للأحياء لولا نكبة منزلية كانت تكدر صفوه وتنغص عليه سعادته ، كان له حانوت خياطة رائج معروف اسمه « الكابادوسيا » وكان الذى زين له اختيار هذا الاسم وحببه إليه تاجر متنقل من تاراسا ، وقد أوحى إليه هذا الاسم لما لحظ أن اللوحة المعلقة خارج الحانوت كانت تقرأ « حانوت خياطة باريزى كبير — اخصائى فى عمل القبعات »

« أخطر ببالك أن حوانيت الخياطة لا تصنع القبعات ؟ وإذا كنت اخصائياً فى تطريز المعاطف ! انك إخصائى فى عمل القبعات فيلزم أن تسمى حانوتك « الكابادوسيا » فرأى هذا التاجر الطموح أن الاقتراح حازم ومقبول فأبدل العلامة بأخرى ونقش عليها الاسم الجديد بحروف سود مشوبة بحمرة

وكما قدمت كانت أسباب السعادة كلها مستكملة عنده إلا مسألة واحدة، كان عمله يدر عليه المكاسب ، وكانت القبعات تباع فى عاصمة الأندلس بسهولة حيث كان كل عامل يرتدى قبعة رثة يرمى بأنه سكير مفرط —

كما هى حقيقة الأكثرين — وكانت أكثر تلك القبعات تشترى من حانوت دون برناردو ، وكانت تصنع من أقمشة يجلبها تاجر تاراسا المتنقل ، ومع ذلك كله كان لدون برناردو ابن أحزن قلبه ونفى السرور عن ساحته

كان هذا الابن أول ما رزق من الأولاد بعد زواجه بدونا ليزا ، وهى سيدة قوية البنية اشتهرت بأنها كانت فى صباها محبوة بفنون من الملاحة والرقة ، وكان ابنه هذا منذ مولده سليم البدن ، وكان السنيور جوانزالز يحفظ صورتين من جرائد مدريد جنباً إلى جنب ، إحداهما كانت تشمل صورته وهو عضو لجنة مثلت بين يدى وزير الداخلية لتقديم عريضة عن عمل طريق يصل بين بلده وبعض القرى غير المشهورة ، والصورة الأخرى كانت من جريدة محلية وتشمل اعلان ميلاد ولده الوحيد « ان السيدة الفاضلة حرم صديقنا المحترم صانع القبعات المعروف دون برناردو جوانزالز قد رزقت طفلا »

وتحقق ما كان ينبىء عنه جسم الصبى من القوة كلما تقدم فى السن ، فقد كان دائماً غلاماً موفور الصحة قوى العضل ، ولكنه وصل السن التى نصب فيها نيرون امبراطوراً دون أن ينطق بكلمة واحدة ، أى أنه كان يبلغ الآن السابعة عشرة من عمره ، وقد أخذ ينبت له شارب خفيف

وكان يلبس فوق منكبيه الوثيقى التركيب — وهو فرح مسرور — قبعة فاخرة من أحسن ما أخرج حانوت أبيه ، ولكنه مع كل ذلك لم يفه قط بكلمة بابا أو ماما أو بأى كلمة أخرى من كلمات الأطفال ، وقد فحص

حلقه كل أطباء المدينة واجتمعت آراؤهم على أنه سليم ، وتمسكوا بأن وارث الكابادوسيا يمتلك أعضاء النطق سليمة كاملة ، ومن ثم كان يجب أن يتكلم إذ ثبت لهم ببرهان لا يحتمل النقد أنه ليس أصم

فلماذا لم يتكلم ؟ حقيقته أن أكثر الأحاديث التى كانت تدور فى منزل أبيه لم تكن بوجه خاص مسلية ولا شائقة ، ولكن مع ذلك كانت تعرض فرص للفكاهة ، مثلا عند ما كان يظهر دون برناردو أمام أسرته وهو فى لباس المغاربة قبل أن يذهب إلى حفلة الرقص فى الكازينو ، فقد كان منظره إذ ذاك يبعث على الإغراب فى الضحك وكانت تبدو على « برنارديتو » من وقت لآخر علائم الاكتئاب والحزن ، فيمضى الساعات متكئاً على الأريكة ، وكان واوعا بأن يمشى منفرداً و يقطع مسافات بعيدة ، وكانت تسيل دموعه إذا سمع موسيقى مؤثرة !

كان اليوم يوم أحد السعف ، فبعد أن سمع السنيور جوانزالز القداس فى الكنيسة جلس الى المائدة ليتناول الغداء مع أفراد أسرته ، دوناليزا و برنارديتو وروزيتا ، والأخيرة عذراء ممشوقة القوام رشيقة الحركة ، وقد زادها الثوب الجديد بهجة وجمالا ، وقد لبسته فى ذلك اليوم لئلا تفقد جمال أناملها الصغيرة ، وهى العقوبة التى تنزل بالفتيات اللواتى لا يبرزن فى ذلك العيد .

كانت روزيتا ابنة شقيق برناردو ، وقد تبناها وهى طفلة ، وكان أبوها قد مات قبل مولدها بشهور قلائل ، وتوفيت أمها وهى تلدها ، وكانت أصغر

من برنارديتو بقليل ، فقد ولدت بعد مرور ست ساعات من نفس اليوم الذى ولد فيه ابن عمها الصامت ومن نفس الشهر ونفس العام

كان السنيور جوانزالز قد انتهى من إطراء جمال ابنة أخيه ، و بينما كانت الخادمة تضع وعاء الحساء فى وسط المائدة انطلق صوت قوى منغوم بالكلمات الآتية « يا أبتى إنى أريد أن أكون جنديا »

فاختفت العذراء على الفور ، وصاحت دوناليزا وأوشكت أن يغمى عليها ، ووثب دون برناردو من مقعده وقد اهتز من التأثر

وتغلبت العذراء على خوفها الفجائى وأخذت تنظر من شق خلف الباب ، وطوقت دوناليزا ابنها بيديها ، وشرعت تقبله وترطب خديه بالدموع ، أما دون برناردو فقد أسرع إلى الطبيب لأنه خالجته فكرة أن نطق ابنه الفجائى وانحلال عقدة لسانه يستلزم عناية الطبيب ، و بعد مرور دقائق على ذلك كان جوانزالز وزوجته فى الغرفة الصغيرة فى حوار مع طبيب الأسرة

« هل أنت متأكد من أنك لم تخطىء ! »

« ما الذى قاله ؟ »

« قال إنه يريد أن يكون جنديا ، إنها حالة غريبة أيها الطبيب ، أليست كذلك ؟ »

« إنها غريبة فى الظاهر ، ولكن لماذا قال ذلك ولم يقل شيئاً آخر ، لنذهب لفحصه »

ولما دخلوا غرفة الطعام كانت روزيتا و برناديتو لا يزالان جالسين كل منهما تجاه الآخر ، وكان برنارديتو يرنو إليها بعينين مشرقتين

صغيرتين ، وكان بعينيه رقة وبوجنتيه تورد ينمان عن أمره ويكشفان جلية سره ، وكانت روزيتا تبتسم وقد صبغ الحياء وجنتيها مما دل على أنها أوتيت بداهة جنسها اللطيف

وكان الطبيب عليما بأسرار النفس وخفايا القلب فأشار إلى برناردو وزوجته بأن يتبعاه لعقد جلسة استشارة ثانية فى الغرفة الصغيرة خلف الحانوت .

— « هذا الفتى يحب ابنة عمه »

— يا دكتور :

— « أنا أقول إنه هائم بحبها ، غريق فى لجة هواها والأحسن أن تزوجاه بها »

— ولكن ما علاقة ذلك . . . . ؟

— « تقصدون علاقة ذلك بعجزه عن الكلام وتعطيل وظائف النطق . ولكن لماذا تعجبون من ذلك يا أصدقائى الأعزاء ! ألا تعرفون ما يستطيع أن يفعله الحب بصبي ! وكيف يستطيع أن ينومه ويوقعه تحت تأثير غريب ! »

— من أجل ذلك كان لايقوى على الكلام !

— « هذا هو السبب

— لقد أحب دانتى فى التاسعة من عمره ، وليس عندنا برهان على أن عاطفة كهذه لاتبدأ قبل ذلك ، وأنا مقتنع بأننا بازاء حادثة حب مبكر وأن هذا الصبى كان طوال حياته يحب ابنة عمه ، وقد ملأ نفسه هذا الحب أثناء حياته كلها ، وأخيراً جاشت غوار به وفاضت سيوله فكسرت

الحواجز والسدود وأنطقته بالكلمات التى رن صداها فى أذانكم »

— ولكن لماذا قال إنه يود أن يكون جنديا ؟

— ألا تعلم أن روزيتا مجنونة بالجند ! وأنها تخف إلى الشرفة لترى مرور الفرسان ، وأنها فى هذا الصباح كانت تراقب هذا الملازم ؟

فسأل دون برناردو إبنه بصوت يهتز من العاطفة : هل هو حقيقة يهوى ابنة عمه ؟ وعند ذلك أخذ الصبى الصامت يتكلم لمدة أربع ساعات متوالية وهو مهتاج المشاعر . وكان يحاول تصوير عواطفه وإظهار عمقها ، وتأثرت روزيتا بدفاعه الماهر فتمتمت إنها كذلك تحبه

ولم يصبح ابن دون برناردو جنديا ، واستخدم مواهبه فى مد حدود حانوت عمل القبعات . ومرت سنوات اتسع فيها حانوت الكابادوسيا ، وضم إليه حانوت آخر ومخزن أحذية

وعملا بنصيحة تاجر تاراسا المتنقل أدخل تعديل جديد على اللوحة ، وكان الاقتراح فى هذه المرة ملائما صالحا مثل الاقتراح الأول فصار اسم المحل « آسيا الصغرى »



الحلم

للروائى الروسى ايفان ترجنيف [١٨١٨ — ١٨٨٣]

(١)

كنت فى تلك الأيام مقيما مع والدتى بمدينة صغيرة على ساحل البحر ، وكنت فى السابعة عشرة من عمرى ، ولم تكن والدتى قد جاوزت الخامسة والثلاثين ، فقد تزوجت صغيرة ، ولما مات والدى كانت سنى لا تعدو السابعة ولكنى أذكره جيداً ، وكانت والدتى شقراء الشعر ، ليست بالطويلة وذات وجه فاتن ولكن تعلوه دائماً سيماء الحزن ، وكان صوتها ليناً حسيرا ، والحياء بادياً فى حركاتها ، كانت فى صباها باهرة الجمال رائعة الحسن وبقيت إلى النهاية جذابة حسناء ، ولم أر فى حياتى عيوناً أعمق ولا أرق وأكثر حزناً ، كلا ولا شعراً أنعم والطف ولا يداً أحلى وأخلب ، كنت أعبدها عبادة وكانت تحبنى ، ولكن حياتنا لم تكن زاهية مشرقة ، كان يظهر أن حزناً خفياً يائساً لا تستحقه يقرض فى جذور كيانها ، وكان لا يمكن أن نعزو سبب هذا الحزن إلى مجرد فقد والدى — ولو أن فقده كان خسارة كبيرة لها . وعلى الرغم من أنها كانت مدلهّة بحبه ولوعة كل الولوع بالتعريج على ذكرياته . . . لا كان فى الأمر شىء مخبأ لا أعرفه ولكنى كنت أشعر بوجوده ، كنت أشعر به شعوراً مبهماً غير واضح —

ولكنه كان شعوراً قوياً — كلما نظرت إلى تلك العيون الوادعة غير المتغيرة وإلى تلك الشفاه غير المتغيرة أيضاً المطبقة لا فى مرارة ولكن كأنما كانت دائماً متخذة لها هيئة واحدة لا تعدوها

قلت إن والدتى كانت تحبنى ، ولكن كانت تمر أوقات تمقتنى فيها كل المقت حتى يصير حضورى مضايقة لها عسيرة الاحتمال ، وفى أمثال تلك الأوقات كانت تبغضنى بغضاً شديداً على غير إرادتها ، وكانت تستبشع ذلك فيما بعد وتلوم نفسها باكية وتضمنى إلى قلبها ، وكنت أنسب نوبات الكراهة الوقتية تلك إلى اعتلال صحتها وإلى همها الملازم وسوء حظها ، ويمكن إلى حد ما — أن يكون الباعث لها على تلك المشاعر المعادية لى ما كان يستأثر بنفسى فجأة الحين بعد الحين من الميول الشريرة والبواعث الإجرامية ، وكنت أجهل تعليلها ، ولكن تلك البدوات السيئة لم يتفق حدوثها فى أوقات نوبات الكراهة ، وكانت والدتى لا تقلع عن لبس سود الثياب كأنها فى حداد ، وكنا فى ظروف حسنة ولكن كنا لا نكاد نعرف أحداً .

(٢)

كانت والدتى قد حصرت كل فكرها فىّ ، وأوقفت كل همها علىّ . كانت حياتها قد اندمجت فى حياتى ، وليس هذا النوع من العلاقة بين الوالدين والأبناء دائماً فى صالح الأبناء ، بل هو قد يضر بهم ، وفضلا عن

ذلك كنت الإبن الوحيد لوالدتى . . . وكل ابن وحيد ينشأ فى الغالب على طريقة ذات جانب واحد ، ففى تربيتهم وتعهدهم يفكر الآباء فى أنفسهم كثيراً كما يفكرون فيهم ، وليس هذا هو الطريق السوى ... ولم يفسدنى ذلك وكذلك لم يشذ منى (إحدى تلك الحالتين هى حظ الأولاد الوحيدين) ولكن أعصابى ظلت إلى أمد ما مضطربة ، وعلاوة على ذلك كانت صحتى فى أكثر الأحيان واهنة مثل صحة والدتى التى كان وجهى يشبه وجهها ، وكنت أتجنب صحبة أترابى من الأولاد ، كنت منقطعاً عن الناس جميعاً وحتى مع والدتى كنت قليل الكلام ، كنت ولوعاً بالقراءة والمشيات المنفردة وبالاسترسال مع الأحلام والايغال فى عالمها ، ومن الصعب أن أقول عم كانت أحلامى حقيقة فى بعض الأوقات ، كنت كأننى أقف على باب منفرج قليلا وخلفه أسرار مجهولة ، كنت أقف وأنتظر وأنا من الانفعال والاهتياج بين الحياة والموت ، وكنت لا أخطو نحو الباب ولكن مع ذلك أفكر فيما وراءه وأقف مترقباً حتى يغشى على أو يستولى على النعاس ولو كان فى طبعى الشعر لتوفرت على نظمه ولو كنت أشعر بميل إلى الدين لذهبت إلى دير ، ولكن لم تكن ميولى من هذا النوع فأخذت أضرب فى عالم الأحلام وأنتظر

(٣)

ذكرت توا إنه فى بعض الأوقات كان يستولى على النوم تحت تأثير

غوامض الأحلام وسوانح الهواجس وكنت أنام كثيراً فى كل وقت ، وكانت الأحلام تلعب دوراً مهماً فى حياتى كانت لى كل ليلة أحلام لا أنساها وكنت أعلق عليها أهمية وأعتبرها تحذيرات وأجتهد فى استفسار معناها وا كتناه سرها كان بعضها يعاودنى المرة بعد المرة ، وكان يظهر لى ذلك غريباً مدهشاً ، وكان هناك على الأخص حلم واحد قد تركنى مبلبل الفكر مضطرب الخاطر إذ رأيت أنى أسير فى شارع ضيق مرصوف بالحجارة رصفاً رديئاً بمدينة عتيقة الطراز بين بيوت حجرية كثيرة الطبقات بارزة السقوف ، كنت أبحث عن والدى الذى لم يكن مات وإنما اختبأ واحتجب عنا لسبب من الأسباب وأقام فى منزل من تلك المنازل ، ولذا ولجت بوابة منخفضة مظلمة واخترقت ساحة طويلة مزدحمة بكتل من الأخشاب والحديد واتخذت طريقى أخيراً إلى غرفة صغيرة ذات نافذتين مستديرتين ، وفى وسط تلك الغرفة كان يقف والدى مرتديا ملابس النوم وقد أشعل غليونه وكان أبعد ما يكون شبها بوالدى الحقيقى . كان طويلا نحيفاً أسود الشعر مقوس الأنف ذا عيون حادة نافذة متجهمة ، كان يبدو لمن يراه إنه فى سن الأربعين ، وكان قد ساءه أنى وجدته ، ولم أكن أنا كذلك مسروراً لأنى رأيته فوقفت حائراً ، فابتعد قليلا وأخذ يتمتم ببضع كلمات ، وطفق يمشى جيئة وذهوباً بخطوات قصيرة . . . ثم ابتعد رويداً رويداً دون أن ينقطع عن تمتمته ، وكان يتلفت باستمرار من فوق كتفه ، ثم زادت الغرفة اتساعاً وغابت فى ضباب ، وكبر على فقدان والدى فى التو واللحظة وعدوت وراءه

فلم أستطع رؤيته ، ولم أسمع إلا تمتمته المقتضبة كالدب المزمجر فهلع قلبي من الخوف وانتبهت من رقادي ولم أستطع النوم إلا بعد زمن طويل . . . .
وأمضيت اليوم التالي مفكراً في ذلك الحلم و بطبيعة الحال لم أستخلص منه شيئاً

(٤)

أقبل شهر يونيو ، وصارت المدينة التي كنت أعيش فيها مع والدتي مرحة مزدهرة ، وكان في الميناء عدد من السفن ، وكنت تبصر بالمدينة وجوهاً كثيرة لم تكن رأيتها من قبل ، وكان يحلو لي في تلك الأيام أن أهيم على ساحل البحر وأمر على مشارب القهوة والفنادق أتصفح وجوه الملاحين المختلفة اختلافاً واسعاً ، وأرى غيرهم من الناس الجالسين تحت المظلات إزاء موائد بيض صغيرة وأمامهم أقداح الجعة

ولما مررت ذات يوم على إحدى القهوات رأيت رجلا استرعى انتباهي كان لابسا حلة سوداء كاملة وعلى رأسه قبعة قشية مسدولة إلى ما فوق عينيه ، وكان جالساً في هدوء تام وذراعاه مطويتان على صدره ، وكانت خصل شعره المتطلعة المستوفزة تتهدل مقاربة لأنفه ، وكانت شفتاه الرقيقتان قد أخذتا بغليون صغير ، وقد ظهر لي أن هذا الرجل معروف عندي ، وكانت ملامح وجهه الأصفر القاتم مطبوعة في ذاكرتي بوضوح وجلاء فلم أستطع أن أتحاشى الوقوف أمامه ، ولم أستطع أن أمتنع عن أن أسائل نفسي « من

هذا الرجل » ؟ ولما أحس الرجل بنظراتى العامدة رفع عينيه السوداوين النافذتين وصوبهما إلى فخرجت منى على غير رغبة « آه »

كان الرجل والدى الذى أبحث عنه ، الوالد الذى أريته فى حلمى ! لم يكن هناك مكان للخطأ ، وكانت المشابهة ظاهرة جلية ، حتى نفس البذلة التى لفت ساقيه النحيفتين فى أطرافها كانت تشبه فى لونها ورسمها ملابس النوم التى رأيت فيها والدى فى الحلم ، فدهشت « ألست الآن نائماً » لا . . . كنا فى النهار وحولى جموع الناس فى لغط وضجة ، وكانت الشمس تنير فى كبد السماء الزرقاء جلواء مشرقة ، ولم يكن أمامى شبح من الأشباح وإنما رجل حى

ذهبت إلى مائدة غير مشغولة ، وطلبت قدحاً من الجعة وجريدة وجلست قرب هذا الشخص الغامض

(٥)

ووضعت الجريدة فى مستوى وجهى وتابعت فحص هذا الغريب ، ولم يكن يتحرك إلا نادراً وإنما كان يرفع رأسه من الحين إلى الحين ، كان يظهر عليه أنه ينتظر قادما ، أخذت أسترق النظر إليه وأحدق فيه . . . وفى بعض الأوقات كنت أتوهم أنى متخيل كل ذلك ، وأنه ليس هناك فى الحقيقة من مشابهة ، وأنى قد ألقيت العنان لخدعة من خدع الخيال التى

يختلط فيها الوعى باللاوعى ، ولكن الغريب كان يتحول فى مقعده بغتـة أو يرفع رأسه فأهم بأن أصيح ثانية : لقد رأيت والدى الذى أريته فى الحلم أمامى للمرة الثانية ! وأخيراً لمح الرجل مراقبتى له غير المرغوب فيها ونظر إلى أولا فى دهشة وتعجب ثم أخـذ ينظر ناحيتى بامتعاض ومضايقة ، وكاد يهم بالقيام فسقطت منه عصا صغيرة مسندة إلى المائدة ، فوثبت فى نفس اللحظة والتقطتها وناولته إياها وكان قلبى ينبض نبضاً عالياً

فابتسم ابتسامة متكلفة وشكرنى ، ولما دنا وجهه من وجهى رفع حاجبيه وفتح فمه قليلا كأنما قد خالج نفسه شيء وعرض له خاطر ، وقال لى بصوت جاف قاطع أغن « إنك شاب مؤدب جداً ، وهذا شيء نادر فى هذه الأيام اسمح لى أن أهنئك ، لابد أنك نشأت نشأة طيبة ! »

ولست أتذكر بدقة بماذا أجبته ، وإنما تلا ذلك محادثة بيننا علمت منها أنه من أبناء وطننا وأنه آب من أمريكا من زمن غير بعيد حيث أمضى سنوات عدة ، وكان على وشك العودة إليها وسمى نفسه بارون . . . ولم أستوضح الاسم بجلاء ، وكان مثل والدى فى الحلم يختم كل ملحوظة بتمتمة داخلية غير واضحة ، وأراد أن يعرف لقبى ولما سمعه دهش ، ثم سألنى : هل عشت طويلا فى المدينة ومع من كنت أعيش ، فأخبرته أنى مقيم مع والدتى

« ووالدك » ؟ « والدى مات من زمن بعيد » فسأل عن اسم والدتى وضحك ضحكة مرتبكة واعتذر منها قائلا إنه قد تسللت إلى إخلاقه بعض

عادات الأمريكان وأساليبهم ، وإنه مخلوق غريب فى جملته ، وأبدى رغبته فى الوقوف على عنواننا فأخبرته به

(٦)

وأخذت تخف وطأة الانفعال الذى تملكنى عند بدء المحادثة ، وشعرت بأن لقاءنا هذا غريب وليس أكثر من ذلك ، ولم ترقنى الابتسامة التى كان يستجوبنى بها البارون ، ولم أحب المعنى البادى فى عينيه وهو يصوبهما إلى كالإبر ، كان فى عينيه شىء وحشى مفترس غلاب موهن للاعصاب ، ولم أر تلك العيون فى الحلم ، كان غريباً وجه هذا البارون ! كان وجهه شاحباً كليلا وفى نفس الوقت يدل على أنه لم يتجاوز سن الشباب ، ولكن شبابه كان منفراً لا تأنس إليه النفس ولا تستطيبه ! ولم يكن لأبى الذى رأيته فى الحلم تلك الندبة العميقة المنحدرة من فوق جبين صاحبى الجديد والتى لم ألحظها إلا عند اقترابى منه

ولم أكد أخبر البارون باسم الشارع ورقم المنزل الذى كنا نسكنه حتى جاءه من خلفه زنجى طويل القامة ملتف إلى جبينه فى عباءة ولمس كتفيه لمسة خفيفة فتحول إليه البارون وهتف قائلا : آه . أخيراً ! ثم التفت إلى وانحنى لى انحناء خفيفاً وعاد مع الزنجى إلى القهوة وتركنى تحت المظلة ، وقد ترقبت باهتمام عودته ، ولم يكن غرضى من ذلك العودة إلى محادثته (فقد كنت لا أدرى فيم أحادثه) وإنما على الأكثر لأتأكد من تأثرى الأول

ولكن مرّ على ذلك نصف ساعة ومرت ساعة أخرى ولم يظهر البارون ، فرجعت إلى القهوة ومررت بكل قاعاتها ولكن لم أر الزنجى ولا البارون ... لا بد أنهما خرجا من باب خلفى ... ثم شعرت بألم يسير فى رأسى فمشيت على شاطىء البحر لاستنشاق الهواء النقى وقصدت حديقة كبيرة خارج المدينة مضى عليها مائتا سنة ، و بعد أن قضيت ساعات متجولاً فى ظلال أشجار البلوط الكبيرة الضخمة وأشجار الدلب عدت إلى منزلى

(٧)

وحين أبصرتنى الخادمة فى الردهة هرولت إلىّ مهتاجة منفعلة ، وعرفت من ملامح وجهها أنه حدث فى المنزل حادث أثناء تغيبى . وحقيقة علمت أنه منذ ساعة ارتفعت من غرفة والدتى بغتة صيحة مخيفة ، ولما أسرعت إليها الخادمة وجدتها ملقاة على الأرض فى نو بة إغماء استمرت دقائق عديدة واستعادت والدتى ثانية شعورها ، ولكنها اضطرت إلى الانطراح ، وكان يظهر عليها الخوف والدهشة ، ولم تنطق بكلمة ولم ترد على سؤال ، وكانت تدير الطرف فيما حولها مضطر بة منتفضة ، وأرسلت الخادمة البستانى ليدعو الطبيب ، فجاء الطبيب ووصف لها علاجا مهدئاً ولكن والدتى لم تقل شيئاً حتى له . وأكد البستانى أنه رأى قبل أن يسمع الصرخة رجلاً مجهولاً ينسل من أدغال الحديقة إلى البوابة فى الشارع (كنا نقيم فى منزل ذى طابق واحد وكانت نوافذه مطلة على حديقة واسعة) ولم يجد البستانى وقتاً

كافياً لرؤية وجه الرجل ، ولكنه كان طويلاً ولابساً قبعة من القش متهدلة وكسوة طويلة كاملة ، فخطر بفكرى « كسوة البارون » ولم يستطع البستانى اللحاق به ، وفضلاً عن ذلك فانه استدعى فى المنزل وأرسل فى دعوة الطبيب ، فذهبت إلى والدتى ، وكانت مطروحة على الفراش وهى أشد بياضاً من الوسادة التى أسندت عليها رأسها ، وابتسمت لما رأتنى ابتسامة واهنة وبسطت إلىّ يدها فجلست إلى جانبها وشرعت أسألها وكانت ترد بالنفى على كل شىء ، وأخيراً أقرت بأنها رأت شيئاً ملأها خوفاً ورعباً ، فسألتها : هل جاء أحد هنا ؟ فأجابت فى سرعة إنه لم يأت أحد وإن ما رأته مجرد وهم وخيال ، ثم أمسكت عن الكلام وخبأت وجهها بيديها ، وكنت أهم بأن أخبرها بما سمعت من البستانى ، وأن أصف لها عرضاً مقابلتى مع البارون ... ولكن لسبب من الأسباب أبت شفتاى التكلم وإن كنت قد اجترأت على أن أبدى لوالدتى ملحوظة أن الأشباح لا تظهر فى وضح النهار ، فأشارت إلىّ بالصمت وقالت أرجوك ألا تعذبنى الآن ، وستعرف ذلك يوماً ما ، وعادت إلى الصمت ، وكانت يدها مقرورة ونبضها سريعاً غير منتظم ، فناولتها الدواء وابتعدت عنها قليلا كى لا أزعجها ، فلم تبرح الفراش طوال اليوم ، وكانت ترقد هادئة ساكنة ومن الحين إلى الحين تصعد زفرة عميقة وتفتح عينيها فى خوف وجزع ، وكان كل من فى المنزل فى حيرة لا يدرون

(٨)

ولما دنا الليل أصابت والدتى حمى خفيفة فأبعدتنى عنها ، فلم أذهب إلى غرفتى ، و إنما أستلقيت على أريكة فى الغرفة التالية ، وكلما انقضى ربع ساعة كنت أقوم وأسير على أخمص قدمى إلى الباب وأتسمع ... كان كل شيء ساكناً ولكن والدتى لم يغمض لها جفن تلك الليلة ، ولما عدتها فى باكورة الصباح كانت وجناتها غائرة ، وكان ينبعث من عينيها ضياء غير طبيعى ، وفى أثناء النهار تحسنت قليلا ، ولكن قرب المساء ازدادت الحمى وظلت إلى ذلك الوقت مصرة على الصمت ، ولكنها أخذت بغتة تتكلم بلهجة سريعة متقطعة ، ولم تكن شاردة الفكر ، بل كان فى كلماتها معنى ولكن لم يكن بينها اتصال

وعند منتصف الليل نهضت من مرقدها بحركة عنيفة — وكنت جالساً إلى جانبها — وأخذت فى نفس اللهجة السريعة تقص علىّ قصتها ، وهى من وقت لآخر تتناول رشفات من زجاجة بجانبها وتحرك يديها فى ضعف وهوادة دون أن تنظر إلىّ — بل لم يقع بصرها علىّ أثناء الحديث مرة واحدة — وكانت تتوقف وتحاول أن تملك نفسها وتستأنف القصة ... كانت حالتها غريبة وكأنها كانت تفعل ما تفعل فى الحلم أو كأنها كانت غائبة وكأن أحد الناس غيرها يتكلم فى شفتيها أو يرغمها على الكلام .

(٩)

استهلت والدتى قصتها بقولها لى : « اصغ لما سأفضى به إليك فلست الآن صبياً صغيراً ، ويلزم أن تعرف كل شىء ، كانت لى صديقة فتاة تزوجت رجلاً أحبته من صميم قلبها ، وكانت جد سعيدة مع زوجها ، وفى خلال السنة الأولى من حياتهما الزوجية سافرا معاً إلى العاصمة ليمضيا أسابيع قليلة هناك فى اللهو والمتعة ، وأقاما بفندق صالح وأكثرا من التردد على المسارح والمجتمعات ، وكانت صديقتى حسناء فاسترعى جمالها الأنظار واختلب ألباب الشباب — ولكن كان بينهم شاب ضابط يتبعها بلا انقطاع ، كانت ترى عينيه السوداوين القاسيتين أينما تحل ، ولم يقدم إليها الضابط ولم يخاطبها مرة واحدة — وإنما كان ينظر إليها باستمرار نظرات وقحة مقتحمة مفرطة فى الغرابة ، وقد نغص وجوده عليها ملذات العاصمة فأخذت تغرى زوجها بالإسراع فى الرحيل ، وكانا قد أتما الاستعداد له ، ففى ذات مساء ذهب زوجها إلى النادى — وكان دعاه إليه ليلعب البوكر ضابط من نفس فرقة ذلك الضابط الآخر ، فتركها منفردة لأول مرة ، وتأخر عن العودة طويلاً ، فصرفت وصيفتها وذهبت للفراش . . . . وشعرت فجأة أن الخوف قد استولى عليها وأحست بابتراد جسمها وأخذتها رعدة وتوهمت أنها سمعت ركزاً مثل نبش الكاب فى الجانب الآخر من الحائط ، فبدأت ترقب الحائط ، وكان فى زاوية من الغرفة مصباح مشتعل ، وكانت الغرفة كلها

مغشاة بالأستار المزركشة . . . . ثم تحرك هنالك شيء فجاءة وهب قائماً
وبرز من الحائط شبح أسود طويل القامة هو ذلك الرجل المفزع ذو العيون
القاسية الوحشية ! فحاولت أن تصيح مستغيثة فلم تقو على ذلك ، أسرع
إليها الرجل كالوحش الضارى وألقى على رأسها شيئاً قوى الرائحة ثقيلاً
أبيض اللون . . . . وما جرى لا أتذكره ! لا أتذكره فقد كان شبيهاً
بالموت أو بالقتل ... ولما أخذت تنجاب تلك الظلمة الرهيبة ... ولما عدت
— أقصد لما عادت صديقتى إلى نفسها لم تجد فى الغرفة أحداً ، وبقيت مدة
لا تستطيع الاستغاثة . . . . ثم أفاقت أخيراً . . . . ثم أخذت بعد ذلك
تشتبه عليها الأشياء . . . ثم رأت زوجها إلى جانب فراشها فقد أبقوه فى
النادى إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل . . . . وكان يظهر عليه أنه
مروّع مبيض الوجه ، فشرع يسألها ولكنها لم تخبره بشىء ، وعاودها الإغماء ،
وأذكر أنها لما خلت بنفسها فى الغرفة تفقدت المكان من الحائط . . . .
واتضح لها أن تحت الأستار المزركشة باباً سرياً ، ووجدت خاتم خطوبتها
قد ضاع من يدها ، وكان شكل هذا الخاتم غير عادى ، كانت تتعاقب
عليه سبعة نجوم ذهبية صغيرة وسبعة نجوم أخرى فضية ، وكان من
موروثات الأسرة القديمة ، ولما سألها زوجها عنه لم تستطع أن تجاوبه ،
فظن زوجها أنه سقط منها فى مكان ما . وبحث عنه فى كل مكان ولكنه
لم يعثر عليه ، فشعر بقلق وهم واعتزم الإسراع فى العودة ، وتركا
العاصمة عندما سمح لها الطبيب . . . ولكن تصور ! فى يوم رحيلها نفسه

اتفق أنهما قابلا بغتة نقالة جرحى محمولة فى الشارع وكان فى تلك النقالة رجل قد قتل تواً وشج رأسه . . . وتصور ! كان الرجل هو نفسه الشبح المفزع الذى ظهر فى الليل بعينه الطافحة بالشر . . . . وقد قتل فى نزاع على القمار !

ثم ذهبت صديقتى إلى الريف . . . . وصارت أماً للمرة الأولى . . . .

وعاشت سنوات عديدة مع زوجها ولم يعرف شيئاً قط ، وماذا كانت تستطيع أن تقوله له ؟ هى نفسها لم تكن تعرف عن الأمر شيئاً

ولكن سعادتها السابقة ودعتها مولية ، وأخذت سحابة حزن تظلل حياتهما ، ولم تنقشع قط تلك السحابة ، ولم يرزقا أطفالاً قبل هذا الابن ولا بعده . . . » ثم انتفضت والدتى وخبأت وجهها بين يديها واستمرت تقول وقد تضاعف نشاطها « ولكن قل الآن هل كانت صديقتى حقيقة باللوم على أى وجه من الوجوه ؟ وما الذى جنته حتى تعود على نفسها باللائمة ؟ لقد نزلت بها العقوبة ، ولكن أليس من حقها أن تقول أمام الله نفسه إن العقوبة التى حلت بها عقوبة ظالمة ؟ ففيم إذن يطالعها الماضى بصور مخيفة بعد تصرم سنوات كثيرة كالمجرم الذى يخزه ضميره ؟ لقد قتل ما كبث بانكو فلا غرابة إذن أن زاره طيفه . . . ولكن أنا . . . »

وهنا اختلطت كلمات والدتى وامتزجت بعضها ببعض حتى توقفت عن متابعتها . . . ولم أشك فى أنها كانت تهذى

(١٠)

ويمكن أى إنسان أن يتصور بسهولة التأثير الشديد المثير الذى ألم بنفسى بعد سماع ما ألقته علىّ والدتى ، فقد عرفت من كلماتها أنها تتحدث عن نفسها وتروى قصتها لا قصة صديقة لها

وأكد فى نفسى هذا الظن فلتة لسانها ، فإذن حقيقة كان والدى هذا الذى كنت أبحث عنه فى حلمى والذى رأيته فى يقظتى فى رائعة النهار ، ولم يكن قد قتل كما توهمت والدتى وإنما جرح فقط وقد جاء ليراها ولاذ بالفرار لما أخافه خوفها ، وفهمت بغتة كل شىء .... الشعور بالكراهة لى الذى كان ينبعث فى نفسها برغم إرادتها .. وحزنها الدائم وعيشتنا المنعزلة ، وأتذكر أن رأسى أخذ يدور وأخذت أمسكه بكلتا يدى لأوقفه عن الدوران ، ولكن فكرة واحدة قيدتنى وأقرت رأسى ، وذلك أنى عقدت النية على أن أجد هذا الرجل كائنة ما كانت الظروف والأحوال ! ولكن لماذا ؟ ولأى غرض ؟ لم أستطع أن أرد على نفسى بجواب واضح — ولكن لقاء هذا الرجل صار عندى مسألة حياة أو موت ! وفى الصباح التالى هدأت والدتى وفارقتها الحمى .... وأخذتها سنة من النوم فتركتها فى رعاية الخدم وأهل المنزل وخرجت أبغى مطلبى

فسلكت فى بادىء الأمر الطريق المفضى إلى القهوة التى قابلت فيها البارون ولكن لم يعرفه أحد فى القهوة بل لم يلمحه أحد فقد كان زائراً عابراً ، ولما كان شكل الزنجى يستلفت النظر فقد لحظه بعض الناس ولكنهم لم يعرفوا من هو ولا أين يقيم ، وتركت عنوانى فى القهوة ، وطفقت أجوب الطرقات وأجول فى الشوارع المواجهة للبحر والتى تظللها الأشجار المغروسة على الجانبين ، وأبحث فى المحلات العامة كلها ولكن لم أستطع أن أجد شبيهاً للبارون ورفيقه ! . . . . ولم أكن أعرف لقب البارون ولذا عدمت وسيلة عرض الأمر على الشرطة ، ولكنى على أى حال أطلعت ثلاثة أو اثنين منهم على الأمر فنظروا إلىّ نظرة دهش وتعجب ولم يصدقوا مطلقاً أننى أستطيع مكافأتهم بسخاء إذا أمكنهم أن يقتفوا أثر شخصين وصفت لهما مظاهرهما الخارجية بقدر مايمكننى من الدقة ، وبعد أن سرت على هذه الطريقة إلى وقت الغذاء عدت أدراجى متعباً قليلاً ، وكانت والدتى قد استيقظت وقد زاد على حزنها العادى نوع من الذهول الحالم المستغرق ، فحز ذلك فى قلبى كحز السكين ، وقضيت المساء معها ، وتكلمنا قليلاً ، وكانت والدتى قد اعتصمت بالصبر فأخذت أراقب صبرها فى صمت ، ولم تشر إشارة واحدة إلى ما أفضت به إلى فى المساء الماضى ، وكأنما عقدنا اتفاقاً سرياً على أن لا نعرض لهذه الحوادث الغريبة المروعة. . . .

وكان يبدو عليها أنها غضبى مع نفسها وأنها نضو حياء لما بدر منها عن غير وعى ، ولو أنها كانت لا تتذكر جيداً ما فاهت به فى حالة غيبوبتها وهى محمومة ، وأملت أنى سأعفيها من ذلك . . . . وقد أعفيتها وأغضيت عن الإشارة إلى ما ذكرت ، وشعرت هى بذلك وكانت تتجنب نظراتى مثلما فعلت فى الليلة السالفة ، ولم أذق النوم تلك الليلة ، وقد ثارت فى الخارج فجأةً زوبعة رهيبة فكانت الريح تعول وتعصف عصفاً أهوج فتهز زجاج النوافذ ويرتفع منها رنين وصليل ، وكانت تدوى فى الريح صرخات يائسة وتتصاعد فى جوانبها تأوهات كأنما تتمزق أحشاء شىء فى السموات وكأن هذا الشىء كان يطير فوق المنازل المهتزة المرجوجة وهو يرن ارناناً طائشاً جنونياً ، وقبيل الفجر أخذتنى سنة من النوم وتوهمت بغتة أن أحداً من الناس دخل إلى غرفتى ونادانى ونطق باسمى فى صوت خفيض ولكنه معتزم مصمم ، ورفعت رأسى فلم أر أحداً ، ومن العجب العاجب أنى لم أكن إذ ذاك خائفاً فحسب بل كنت مسروراً مغتبطاً ، وشعرت بغتة شعوراً كاملاً بأنى سأبلغ قصدى ، فارتديت ملابسى مسرعاً وخرجت من المنزل

(١٢)

هدأت العاصفة ... ولكن آثار ثورتها وصراعها كانت بادية محسوسة ، وكنت مبكراً جداً فوجدت الشوارع مقفرة من الناس ، وكانت أماكن كثيرة ملأى بالآجر والمداخن المكسورة وقطع الحواجز الغارقة وفروع

الأشجار ، ولما شاهدت آثار تلك الزوبعة قلت فى نفسى من الدهشة ليت شعرى ماذا كانت تشبه تلك الليلة الأخيرة فى البحر ؟ وقصدت الميناء ولكن رجلى حملتنى فى ناحيـة أخرى كأنها كانت تطيع قوة جاذبية لا تغالب ، ولم تمر عشر دقائق على ذلك حتى وجدت نفسى فى ناحية من المدينة لم أكن زرتها من قبل وكنت أمشى الهوينا ولكن بغير توقف ، وكان يخالجنى إحساس غريب ، كنت أنتظر رؤية شىء خارج عن المألوف ، شىء غير ممكن وكنت فى نفس الوقت واثقاً بأن هذا الشىء غير المعتاد سيأتى بلا ريب

(١٣)

وتأمل فقد شاء القضاء أن يحدث ذلك الشىء الخارق للعادة ، هـذا الشىء غير المنتظر ! فُجَاءَةً وعلى بعد عشرين خطوة منى رأيت نفس الزنجى الذى تحادث مع البارون فى القهوة وهو ملتف بذات العباءة التى شاهدته بها هناك ، وخيل إلىّ أنه برز من بطن الأرض ، ثم أعارنى ظهره وسار بخطوات سريعة على الرصيف الضيق فى الشارع المنعرج فانطلقت وراءه أبغى اللحاق به ، ولكنه ضاعف خطواته دون أن ينظر حوله ودار بحدة وعلى غير انتظار حول ركن منزل بارز ، فأسرعت إلى ذلك الركن ودرت حوله بالسرعة التى دار بها الزنجى . . . ويا لغرابة ما سأرويه ! واجهت شارعاً طويلاً ضيقاً خالياً خلواً تاماً وقد ملأه ضباب الصباح بكموده

القاتم ، ولكن عينى نفذتا إلى أقصى آخره ، واستطعت أن أنعم النظر فى مساكنه كلها . . . فلم أسمع حركة مخلوق حى به ! واختفى الزنجى بغتة كما ظهر بغتة ! تحيرت فى أمرى ولكن ذلك لم يستغرق سوى لحظة ، وتملكنى شعور آخر فى الحال فعرفت الشارع الساكن سكون الموتى الممتد أمام عينى ! كان هو الشارع الذى أريته فى الحلم ، فشخصت ببصرى وانتفت ، وكان الصباح نضيراً ، ثم تقدمت على الفور دون أدنى تردد وقد ألمت بى رعشة يقين وتأكد !

أخذت أنظر حولى . . هنا كان المنزل ، هنا فى ناحية اليمين كان المنزل الذى أريته فى الحلم مواجهاً بركنه الشارع . وهنا أيضاً كانت البوابة العتيقة الطراز وعلى جانبيها حروف وزخرفة بالأحجار . . . وحقيقة أن نوافذ المنزل لم تكن مستديرة وإنما كانت قائمة الزوايا . . . ولكن هذا ليس مهماً . . . وطرقت الباب ، طرقت الباب مرتين أو ثلاث مرات متدرجة فى الارتفاع . . . ففتحت البوابة على مهل وقد صعدت منها أنة كأنها كانت تتثاءب ، واستقبلتنى خادمة صغيرة شعثاء الشعر ناعسة العين ، وكان يظهر أنها استيقظت تواً ، فسألتها : « هل يقيم البارون هنا ؟ » وألقيت نظرة عجلى على صحن الدار الضيق العميق . . . وكان هناك كل شىء . . . كانت هناك كتل الخشب والحديد التى رأيتها فى الحلم

فأجابت الخادمة « لا ، البارون ليس مقيما هنا »

— لا ! مستحيل !

— ليس هو الآن هنا ، لقد ترك المنزل بالأمس

— أين ذهب ؟

— إلى أمريكا

فأعدت قولها « أمريكا » على غير رغبة منى

— ولكن هل يعود ثانية » ؟

فنظرت إلى الخادمة نظرة المشتبه

— لا نعرف شيئاً عن ذلك فقد لا يعود مطلقا

— وهل أقام هنا طويلا

— لم يقم هنا طويلا ، مدة أسبوع فقط ، وليس هو الآن هنا

— وماذا كان لقب البارون ؟

فحملقت فىّ الفتاة

— أنت لا تدرى اسمه ؟ لقد كنا ندعوه بالبارون

ولما رأتنى أحاول الدخول صاحت « يا بيوتر ! بالباب رجل غريب يكثر من الأسئلة »

فجاء من المنزل رجل عامل قوى الأسر كريه المحيا

فسألنى بلهجة بليدة « ماذا ؟ ما الذى تريده» ؟ ولما سمع ما قلته وهو عابس الوجه أعاد على سمعى ما قالته الفتاة

فسألته « ولكن من المقيم هنا » ؟

— المقيم هنا رئيسنا

— ومن هو

— نجار ، وكل من فى هذا الشارع نجارون »
— وهل أستطيع أن أراه ؟
— لايمكنك أن تراه الآن لأنه نائم »
— ولـكن هل أستطيع أن أدخل المنزل
— لا — اذهب إلى حال سبيلك
— ولـكن هل أستطيع أن أرى سيدك مرة أخرى » ؟
— ولماذا بالطبع تستطيع .. يمكنك أن تراه على الدوام وأؤكد لك أنه يقضى أوقاته هنا مكبا على عمله ، ولـكن اذهب الآن ، وهل يأتى أحد للزيارة فى مثل هذا الوقت من الصباح ؟

ثم سألته بغتة ولـكن الزنجى !

فنظر إلىّ مرتبكا ثم نظر إلى الفتاة

ثم قال أخيراً « أى زنجى انصرف يا سيدى ، تستطيع أن تجىء فى وقت آخر ، يمكنك أن تخاطب رئيسنا »

فخرجت إلى الشارع ، فأقفلت البوابة ورائى بقوة وحدة دون أن يرتفع منها أنين فى هذه المرة

فلاحظت الشارع والمنزل وانصرفت، ولـكنى لم أعد إلى المنزل ... كنت أشعر بتقشع وهمى وخيبة أملى ، وكان كل ما حدث غريباً وغير منتظر وفى الوقت نفسه أى نتيجة سخيفة ! كنت قد ألقى فى روعى أنى سأرى فى المنزل الغرفة التى أعرفها وفى وسطها والدى البارون فى رداء النوم

وفى فمه الغليون . . . فإذا برب المنزل نجار أستطيع أن أراه حين أشاء . . وأستطيع أن آمره بصنع أثاث

ذهب والدى إلى أمريكا فماذا أصنع ؟ أفضى إلى والدتى بكل شىء أو أطوى ذكراه فى قبر النسيان ؟

ولم أستطع أن أستسلم لفكرة أن قوة غريبة تنتهى هذه النهاية الفارغة من المعنى !

ولم أحاول الرجوع إلى المنزل وسرت على غير قصد بعيداً عن المدينة

(١٤)

سرت منكس الرأس عاكفاً على نفسى ولا فكر ولا إحساس إلى أن أهاب بى من خمود الحس وخدره صوت مولول متردد غاضب ، فرفعت رأسى فإذا بالبحر يهدر ويزخر على قيد عشرين خطوة منى ، ورأيتنى أسير على رمال التلال المشرفة على البحر ، وكان البحر قد اهتاجته الزوبعة فعلاه الزبد وامتد فوقه إلى صميم الأفق ، وكانت غوارب الأمواج الطويلة الحادة تتوالى متتابعة وتتكسر على الشاطىء المنبسط ، فاقتربت منه وسرت على الخط الذى تركه جزر البحر ومده على الرمل الأصفر المنساب الممتلىء بقطع منثورة من قش البحر ومكسور الأصداف والحشائش ، وكانت أسراب من طير النورس تطير بارزة الأجنحة فى الرياح مقبلة من أقصى أعماق الهواء ، وكان ينبعث منها صوت المستصرخ الشاكى ، وكانت تحلق فى السماء الغائمة

المتلبدة وهى فى بياض الثلج ثم تسقط فجاءة فتظهر كأنها تثب من موجة إلى موجة ثم تختفى ثانية و يغيب أثرها مثل ومضات الفضة فى أجواف الموج المزبد ، وقد لاحظت أن الكثير منها يحلق باستمرار فوق صخرة كانت واقفة منفردة فى وسط الشاطىء الرملى المطرد الاستواء ، وكانت تنمو على أحد جوانب تلك الصخرة أعشاب بحرية كثيفة فى نظام غير مطرد ، وأبصرت شيئاً أسود مستطيلاً مقوساً غير معتدل الحجم حيث كانت تتصاعد الأعشـــاب الملتفة حول الخط الأصفر . . . فنظرت إليه فاحصاً مدققاً . . . كان هناك شىء أسود ملقى بلا حراك إلى جانب الصخرة . . . أخذت تنجلى عنه أسداف الخفاء و يظهر واضحاً كلما دانيته

كنت على قيد ثلاثين خطوة فقط من الصخرة . . . وكان ما رأيته صورة بشر ! كانت رمة ، كان رجلا غريقاً قذف به البحر ! فذهبت إلى الصخرة

كانت الجثة جثة البارون والدى ! فوقفت وكأننى قد استحلت حجراً ، وهناك تأكدت واستيقنت أن قوى مجهولة ساقتنى من الصباح ، وأننى كنت فى قبضتها وطوع مشيئتها ، ومرت بى دقائق لم يكن فى نفسى سوى هدير البحر وفزع صامت أبكم من رهبة القضـاء الذى تملك نفسى وتصرف بأعنتها

(١٥)

كان منطرحاً على ظهره مائلا قليلا إلى أحد شقيه ، وساعده الأيسر خلف رأسه ، وساعده الأيمن ممدوداً تحت جسمه المنحنى ، وكانت أصابع قدمه — وهى فى حذاء ملاح طويل — قد التصقت بوحل البحر ، وكانت حلته الزرقاء القصيرة مبتلة من مياه البحر ولكنها كانت محكمة الأزرار . وكان فى عنقه رباط رقبة أحمر اللون ، وكان وجهه الأسود وهو متجه نحو الشمس يُرى كالضاحك ، وكان يمكن أن تنظر الأسنان الصغيرة المتقاربة تحت الشفة العليا المرفوعة ، وكنت لا تكاد ترى إنسان عينه الغامض فى تلك الأحداق المتراخية المسودة المحاجر ، وكان شعره المتجعد وقد علته رغوات الزبد متهدلا على الأرض مشوشاً أشعث فتعرى جبينه الأملس وظهر فيه أثر للجرح بلونه الأحمر الأرجوانى ، وبرز أنفه الضامر كخط أبيض مرهف بين وجنتيه الغائرتين ، وكانت عاصفة الليلة السالفة قد فعلت الأفاعيل ... فسوف لا يرى أمريكا مرة ثانية ! الرجل الذى دنس شرف والدتى وأفسد حياتها ولوثها — والدى — نعم ! والدى — ولا أستطيع أن أشعر بشك فى ذلك — كان ملقى فى الطين عند أقدامى ، وخالجتنى إحساسات متغايرة من تشف ورحمة وكراهة وفزع أشد من الجميع . . . فزع مضاعف وخوف مما شاهدت ومما وقع من الحوادث ، وتكشفت فى نفسى المشاعر الجارمة الشريرة التى تحدثت عنها ، مشاعر الغضب التى

كنت أجهل بواعثها . . . وأفزعتنى فقلت فى نفسى « آه » هذا هو السبب فى تلك الحالة التى تغشانى وهكذا ينم دمى على نفسه ، ووقفت إلى جانب الجثة أحملق واجماً ، ألا تتحرك هاتان العينان المبيتان ! ألا ترتجف هذه الشفاه اليابسة ؟ كلا ! كل شىء خامد لا حراك به ، حتى أعشاب البحر كأنها مسلوبة الحياة حيث قذفتها أمواج البحر ، وحتى النوارس طارت ، فلا تقع العين على سارية مكسورة ولا شظية من الخشب ولا بقية من أمراس السفن ، فراغ فى كل ناحية . . . هو وأنا وحدنا وعلى بعد يدوى الخضم ، ونظرت ورائى فإذا الفراغ نفســه وكان تلوح فى الأفق أطراف الشاطىء الرملى المنبسطة المقفرة من الحياة . . . وكان هذا كل ما هنالك ! وعز علىّ أن أترك هذا الشقى النكد الحظ فى هذا الخلاء الموحش على رمال البحر المالحة لتنهشه الأسماك وكواسر الطير ، وأهاب بى هاتف داخلى أن عليك بالبحث عن الناس إن لم يكن للمساعدة — وأى مساعدة ترجى الآن — فعلى الأقل لينتشلوه ويحملوه إلى مسكن من المساكن المعمورة ، ولكن خوفاً لا يوصف استولى علىّ ، وبدا لى أن هذا الرجل الميت قد علم بمجيئى هنا ، وأنه هو نفسه قد هيأ هذا اللقاء الأخير . . . . بل توهمت أنى سمعت التمتمة الخفيــة التى كنت أعرفها من لوازمه . . . . ولج بى الفرار فعدوت . . . ونظرت خلفى مرة واحدة . . . فاجتذب نظرى شىء يلتمع فتوقفت عن الجرى ، وإذا به خاتم من الذهب فى يد الجثة . . . خاتم خطبة والدتى ، ولا أزال أذكر كيف أرغمت نفسى على العودة والاقتراب

من الجثة والانحناء أمامها . . . وأتذكر كيف لمست الأصابع المبتلة المقرورة وكيف حبست أنفاسى وأرخيت أجفانى وأعملت أسنانى فى انتزاع الخاتم المتأبى

وأخير انتزعت الخاتم . . . وانطلقت أسابق الريح ، وكان يطير ورائى شىء على أعقابى ويلحق بى

(١٦)

وكان كل ما قاسيته مسطوراً على وجهى لما بلغت المنزل ، ووقفت والدتى بغتة عند دخولى إلى غرفتها ؛ ونظرت إلى نظرة استفسار ملح ، وحاولت أن أبين لها جلية الأمر فلم أوفق، وفى النهاية ناولتها الخاتم فى صمت فابيض لونها بياضاً مخيفاً وحملقت عيناها أكثر من المألوف وبدت عليها مظاهر الموتى « مثل هاتين العينين » وأرسلت صيحة واهية ، واختطفت الخاتم وأصابها دوار وارتمت على صدرى وغابت عن صوابها ، ومال رأسها إلى الخلف وشخصت إلىّ عيناها الواسعتان الحائرتان ، فطوقتها بساعدى وأخبرتها وأنا ثابت فى مكانى فى هوادة وبصوت خفيض بكل شىء ، ولم أخف عنها صغيرة ولا كبيرة ، فذكرت لها حلمى ولقائى لوالدى وكل شىء بنصه وفصه . . . . وأرعتنى سمعها إلى النهاية دون أن تنطق بكلمة واحدة ، وكان صدرها يتصاعد ويضطرب اضطراباً ، وأومضت عيناها فجأة وغارتا ، ثم وضعت الخاتم فى أصبعها الوسطى وابتعدت قليلا تستحضر

قبعتها وترتدى معطفها فسألتها : إلى أين تريد الذهابُ ، فنظرت إلى بعينين ملؤهما الدهشة والذهول وحاولت أن ترد على سؤالى فخانها صوتها وانتفضت مرات عدة وفركت يديها كأنها كانت تحاول ادفاءهما ، وقالت لى أخيراً « لنذهب إلى هنالك تواً »

« إلى أين يا والدتى ؟ »

« حيث يرقد . . . أريد أن أرى . . . . أريد أن أعرف . . . لابد أن أعرف . . . وحاولت أن أثنى عزمها عن الذهاب ولكنها كأنما أخذتها نوبة عصبية ، ورأيت أنه من المستحيل مقاومة رغبتها ، فخرجنا معاً

(١٧)

والآن كنت أعاود السير على الرمال ولكنى لم أكن فى هذه المرة منفرداً ، كنت متأبطاً ذراع والدتى ، وكانت موجة المد قد انحسرت وظلت تتراجع ، وكان البحر أهدأ ولكن هديره — ولو أنه كان أخفت صوتاً — كان لا يزال مهدداً منذراً سىء السريرة ، ولاحت لناظرينا الصخرة المهجورة ، ورأينا الأعشاب البحرية فأخذت أرسل الطرف عامداً وجهدت فى استيضاح الشىء المقوس الملقى على الأرض ، ولكن لم أبصر شيئاً ، فاقتربنا ، وراخيت خطواتى بباعث غريزى ، ولكن أين كان الشىء الأسود المستقر بلا حراك ؟ لم يكن ثمة إلا أعشاب أثيثة ملتفة سود اللون بادية فى الرمل الذى أخذ يجف ، وذهبنا رأساً إلى الصخرة . . . .

لم نر هناك جثة ، ولم نجد سوى التجويفة حيث كانت الجثة ملقاة ، وكنت ترى أثر الساعد والساق فى الرمل ، وكأنما كانت الأعشاب حولها مدوسة مسحوقة وقد ظهرت آثار أقدام ، وقد مرت تلك الأقدام على كثيب الرمل المشرف على البحر ثم غابت آثارها فى الحصى المتراكم ، فنظر كل منا إلى الآخر ، وهالنا ما أبصره كل منا فى عين صاحبه

يقيناً أنه لم يقم بنفسه ويذهب لسبيله ؟

ثم سألتنى والدتى هامسة « هل أنت متأكد من أنك أبصرته ميتاً » ؟

فلم أستطع إلا أن أومىء برأسى موافقاً ، ولم يكن قد مر سوى ثلاث ساعات على عثورى على جثة البارون . . . . بعض الناس قد وجدها ونقلها . . . . لا بد أن أعرف من قام بذلك وماذا آل إليه أمرها ، ولكن على أول الأمر أن أنظر فى شأن والدتى

(١٨)

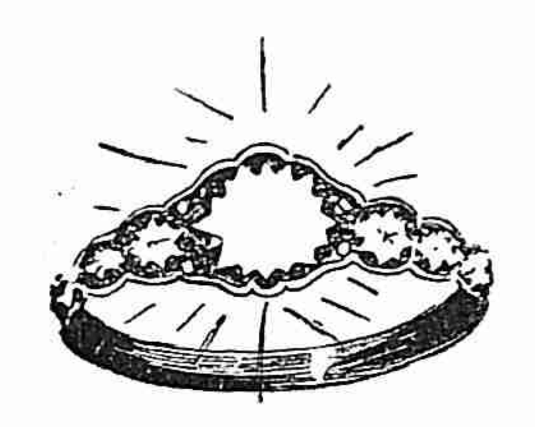
كانت وهى تسير نحو المكان المشؤوم محمومة ، ولكنها تمالكت نفسها ، وجاء اختفاء الجثة ضربة قاضية عليها ، فانعقد لسانها ، وأشفقت على عقلها وأوصلتها إلى البيت بصعوبة ، وأرقدتها ثانية فى الفراش وأرسلت مرة أخرى أدعو الطبيب ، ولكن عند ما أفاقت قليلا طلبت إلىّ أن أخرج فى التو واللحظة من غير إبطاء لأبحث عن « ذلك الرجل » فأذعنت للأمر ، ولكن بالرغم من كل محاولة ممكنة لم أعثر على شىء ، وذهبت

مرات عدة إلى مراكز الشرطة وزرت قرى مختلفة فى الجهة المجاورة وأعلنت فى الجرائد وتنسمت الأخبار فى كل ناحية بغير جدوى ، وعلمت حقاً أنه قد انتشلت جثة غريق فى إحدى قرى الساحل قرب .... فأسرعت إلى تلك الجهة ولكن لم أتبين من كل ما سمعته أن تلك الجثة تشبه البارون ، وعرفت السفينة التى أبحرت به إلى أمريكا ، وأجمع الناس فى بادىء الأمر على أن السفينة غرقت فى العاصفة ، ولكن شاع بعد أشهر قلائل أنها شوهدت راسية فى ميناء نيويورك ، ولما كنت لا أعرف لى خطة أتبعها بدأت بالبحث عن الزنجى الذى كنت رأيته وعرضت عليه فى الجرائد مالاً طائلاً اذا زارنا فى المنزل — وقد زارنا فعلاً زنجى طويل القامة وأنا غائب لكن بعد ما سأل الخادم اختفى بغتة ولم يعد بعد ذلك

وهكذا اندثرت معالم والدى واختفت آثاره ، وتلاشى فى الصمت والظلام ولن يؤوب حتى يؤوب القارظان ، وأمسكنا عن ذكره أنا ووالدتى إلا أنها أظهرت لى يوماً استغرابها لأنى لم أقص عليها حلمى الغريب من قبل ، وزادت على قولها « لا بد أن ذلك يعنى . . . . » ولكنها لم تفصح عن فكرتها ولم تبح بما خالجها ، وظلت مريضة مدة طويلة ، وحتى بعد شفائها لم تعد علاقاتنا المتينة السابقة كما كانت ، كانت لا تطمئن إلىّ حتى يوم وفاتها ، وكانت السآمة حالتها الملازمة وهى داء لا دواء له ، وقد يهون وقع كل شىء وتفقد الذكريات المنزلية الأليمة شدتها ومرارتها ، ولكن الشعور بعدم الاطمئنان والثقة إذ تسلل إلى قلب شخصين قد توثقت بينهما الروابط

فليس من الميسور بعد ذلك الخلاص منه ، ولم يعاودنى بعد ذلك الحلم الذى أزعجنى حيناً من الدهر أشد الازعاج ، ولم أعد أفكر فى والدى ، ولكن كنت — ولا أزال — أتوهم فى بعض الأوقات أنى أسمع صرخات بعيدة وأنات حزينة وكأنها كانت لا ينقطع لها صوت ، وكانت تتراءى لى كأنها مقبلة من وراء حائط عال لا يمكن اختراقه ، فينفطر لها قلبى وأبكى وعيناى مقفلتان ولا أستطيع أن أدرى ما أنا فيه ، وهل هناك إنسان يئن وينتحب ! أو أنا أصغى إلى وَلْوَلَة البحر الهائج المستوحشة المتصاعدة من أعمق أغواره ثم تستحيل صوتاً يشبه زمجرة بعض الوحوش

ويغلبنى النعاس فأنام وقد ملأ قلبى الألم والرعب .



أكبرت الأشقر الشعر

للكاتب الألماني لدويج تيك [١٧٧٣ — ١٨٥٣]

كان أحد الفرسان يقيم فى ناحية من جبال الهارز ، واشتهر هناك باسم أكبرت الأشقر الشعر ، وكان معتدل القامة يربى على الأربعين ، وحول وجهه الشاحب الغائر خصائل من الشعر قصيرة مشرقة اللون ، وكان يعيش عيشة انفراد وعزلة ، ويتحاشى جيرانه فلا يندس فيما يشجر بينهم من الخلاف ، وكان قليلاً ما يرى خارج أسوار قلعته ، وكانت زوجته مثله تؤثر العزلة ، وقد تعاقد قلباهما على الحب والصفاء ، وإن كانا يشكوان من الحين إلى الحين لأن الله لم يبارك زواجهما بالخلف

وكان زوار أكبرت قليلين ، وكان حضورهم لا يغير من أسلوب حياته ، وكان الاعتدال والاقتصاد باديين فى أركان منزله ، وكنت تراه عند حضور الأضياف ريح البال جم البشاشة ، ولكنك تلحظ فيه عند تفرده تماسكاً واحتجازاً صامتاً وديعاً ، وتطالع من نفسه آيات حزن دخيل يغرى بالإخلاد إلى السكون والعزلة

وكان فيليب ولتر هو الزائر الذى لا ينقطع عنه ، وهو رجل ربطته بأكبرت شوابك صداقة متينة لتشابههما فى مناحى التفكير ، وكان ولتر

يقيم فى فرانكونيا ، ولكنه تعود أن يمكث أكثر من نصف العام على مقربة من أكبرت حيث يجمع النباتات ويبحث عن المعادن ثم يجمعها وينسقها ، وكان يعيش من ريع قليل ، ولا يمت بصلة إلى أحد

واعتاد أكبرت أن يستصحبه فى مشياته المنفردة ، وتصرم عام فعام والصداقة بينهما تزداد على تقادم العهد رونق جدة ، وقد تمر بالإنسان ساعات يخامر قلبه الحزن لأنه يحمل فى نفسه سراً مكتوماً عن صديقه ويضن به ضنانة البخيل ، وهناك دافع لا مرد لقضائه على قلوبنا يطالبها بأن تبوح بأسرارها العميقة ودخائلها الدفينة للصديق ، إذ بذلك تزداد الصداقة متانة ودواماً وفى أمثال تلك الساعات ترفع الأرواح الرقيقة عن نفسها الحجاب وتقف وجهاً لوجه ، ويحدث فى بعض الأحايين أن واحدة منها تتراجع إلى الوراء وقد تملكها الذعر من الأخرى

وفى أواخر الخريف فى مساء متراكب الدجن كان أكبرت جالساً مع صديقه وزوجته برتا فى قاعة الاستقبال إلى جانب الموقد ، وكان اللهب يلقى لألأ أحمر فى القاعة فيبدو متلاعباً فى سقوفها ، وكنت ترى الليل من خلال النوافذ عبوس الوجه وللأشجار فى الخارج حفيف يسرى فى القر الماطر البليل ، فشكا ولتر طول الطريق الذى سيطويه عند عودته ، فعرض عليه أكبرت أن يقيم حيث هو ، وأن يمضيا هزيعاً من الليل فى حديث رقيق ، وأن ينام الليلة حتى الصباح فى قلعته ، فرضى ولتر ، وأمر أكبرت

فأحضرت المائدة والنبيذ وطعام العشاء وأتى بوقود للموقد وأخذ الحديث يزداد شجوناً ويفيض مسترسلاً

ولما رفعت المائدة وانصرف الخدم أخذ أكبرت يد صديقه وقال له « دع زوجى تحدثك عن شبابها وهو تاريخ غريب وينبغى أن تعرفه »

فقال ولتر « إنى أود ذلك من كل جوارحى » واقتربت الجماعة من الموقد ، وقد مضى موهن من الليل ، وكان القمر يرسل نوره من وراء تفاريق السحب ثم يحتجب

قالت السيدة « لا يجب أن تظننى ثرثارة ، فإن زوجى يصفك برجحان العقل ، وليس من الأصالة من ناحيتنا أن نخبىء عنك سراً ، ولكن لا تظننى أقص عليك خرافة مهما كانت القصة التى سأرويها لك غريبة مستبعدة

« ولدت فى قرية صغيرة ، وكان والدى راعياً متخلف الحال ، ولم تكن حياتنا لينة الجوانب ، وكنا نجلب قوتنا اليومى بشق النفس ، وكانت المشاحنات الكثيرة الوقوع بين والدى ووالدتى تزيدنى حزناً على حزن ، ولم أكن أسمع عن نفسى إلا ما يسوءنى ، ولقد كانا دائماً يقولان إنى طفلة خمولة مكسال عاجزة عن القيام بأبسط الأعمال ، والحقيقة التى لا أخفيها أننى كنت بمكان من البلادة ، بل كنت غير مرجوة ، وكانت الأشياء تفلت من يدى وتسقط ، ولم أتعلم التطريز ولا الغزل ، ولم يستفد منى والداى ، وكنت أفهم تمام الفهم ما هما فيه من الضيق والعوز ، وكثيراً

ما كنت أجلس فى أحد أركان المنزل وأفعم قلبى الصغير بالأحلام ، وكيف يمكننى أن أنهض بهما لو صرت يوماً ما غنية متمولة فأغدق عليهما النعمة تلو النعمة وأغمرهما بالفضة والذهب ، وطالما لذ لى أن أصور لنفسى الدهشة التى تعروهما من ذلك ، وكانت تتوافد على نفسى الأرواح وتريني الكنوز المدفونة أو تمنحنى الحصى الصغير الذى يستحيل أحجاراً ثمينة ، وخشية الإسهاب أقول إن أوهاماً غريبة تعجز عن وصفها الألفاظ كانت تأخذ بأزمة نفسى ، وكنت عند ما أنهض لقضاء حاجة من حوائج المنزل تتجلى بلادتى فى أوضح أشكالها لما كان يترقص فى رأسى من شياطين تلك الأفكار ، وكان والدى شديد الوطأة علىّ دائم التوبيخ لى ولا يرانى إلا حملا ثقيلا على كاهل المنزل ، ولا أذكر إلا نادراً أنى سمعت منه كلمة تسر خاطرى ، وبقيت على تلك الحالة حتى منتصف السنة الثامنة من عمرى ، وكان من الضرورى اللازم حينذاك أن أكون قد أتقنت عملا أو وعيت شيئاً ، وكان والدى يقول إن سبب كسلى لوثة بعقلى أو رغبة فى أن أمضى أيامى فى الكسل والبطالة ، وكان يصب علىّ جام غضبه ، ولما رأى أن هذا لم يقوم منى تمادى فى الشدة ، ففى بعض الأيام أدبنى تأديباً لم تأخذه فيه الرأفة فقد كان آية فى النكر والشدة ، وأكد لى أنه سيوالى شدته ما لم أطرح الكسل ، وقد رقدت تلك الليلة باكية العين خائفة وشعرت بأنى مهجورة منبوذة من كل الناس ، وبلغ من رثائى لحالى أنى نزعت إلى الموت وسئمت الحياة ، وكنت أخشى إقبال الصباح ولا أعرف ما أفعل

ولا ما أنتوى فعله ، ولكم وددت من صميم نفسى أن أصير نشيطة مجتهدة ، ولم أفهم لماذا أنا أشد أطفال الناحية بلادة وأكثرهم خمولا ، وكنت مشفية على حدود اليأس وانقطاع الرجاء .

واستيقظت من رقدتى والشمس فى حجر أمها ، ولم أكن أدرى ما أصنع ، وأغلقت باب الكوخ وخطوت إلى الحقل الفسيح ، وأفضى بى السير إلى الغابة ، ولم تكن أنوار الصباح قد ملأت الآفاق بعد ، وطويت مسافات طويلة جرياً على القدم غير ملتفتة إلى ما حولى ، ولم أكن أشعر بتعب ولا إجهاد ، وكنت لا أزال يداخلنى الظن بأن والدى قد يقتفى أثرى ويلحق بى فإذا لقينى ضربنى ضرباً مبرحاً لفرط غضبه منى .

ولما دانيت آخر الغابة ، وكانت الشمس قد علت فى الأفق رأيت شيئاً أسود الإهاب جاثماً حيال ناظرى ، ورأيت ضباباً كثيفاً مخيما فوقه ، وأخذ الطريق يتدرج فى الارتفاع قبل ذلك بقليل ، فكنت تارة أرتقى الهضبات والتلال ، وطوراً أنطلق فوق الصخور ، ولماشعرت بأنى قاربت الجبال المجاورة أخذت تصرخ فى نفسى الوساوس وتثور بها الهواجس ، وكانت فكرة الاقتراب من الجبل وحدها تملأ نفسى بالمخاوف إذ كنت أعيش فى أرض سهلية ولم أشاهد فى حياتى تلا ، وكانت لفظة تل وحدها كافية لتوقع فى قلبى الرعب والخوف ، ولم أملك من الشجاعة ما يكفى لإغرائى بأن أعود أدراجى ، ولقد حثنى الخوف نفسه على التقدم ، وكنت أكاد أقضى نحبى من الخوف كلما أدرت الطرف حولى وقد روعتنى النسائم الهافية وهى

توسوس فى الأشجار ، وكلما سمعت وقع المعاول فى هدأة الصباح ، ولما قابلت فى الطريق عمال المناجم وسمعت لهجتهم الغريبة كدت أفقد صوابى من الذعر .

ومررت بجملة قرى ، وكنت أتسول فى الطريق ، وكم برحت بى آلام السغب وغلة الظمأ ، وكنت أتصنع أجوبة مختلفة عند ما أسأل عن أمرى ، وسرت على هذا النمط مدة أربعة أيام وانتهى بى المسير فى خاتمتها إلى طريق آخر بعيد عن الطريق الذى بدأت منه رحلتى ، وقد بدأت الصخور حولى تأخذ شكلا مختلفاً ومظهراً غريباً ، فقد كانت صخوراً شاهقات مرتكز بعضها فوق بعض ، وخيل إلىّ أن أول عصفة من عصف الريح ستميل بها إلى أحد جنبيها ، ولم أدر أأتقدم أم أتأخر ، وكنت أنام الليل فى الغابات — إذا كان الفصل أجمل فصول السنة — أو فى أكواخ الصيادين ، ولكن لم أر هناك مسكناً بشرياً ، بل اختفى من نفسى الأمل فى العثور على منزل فى هذه البرية ، وأخذت الصخور تزداد فى عينى وحشة ، وكنت أنسل من فوق أطراف الهاويات السحيقة ، وأخذت آثار أقدامى تضعف وتخفى حتى لم يبق منها أثر فى النهاية ، وأصبحت مسلوبة العزاء موجعة القلب فبكيت وأعولت ، وكان صدى صوتى يجاوبنى من الودى الصخرية فازداد خوفا ، وأقبل الليل وتدجى الظلام فبحثت عن ركن أمين معشوشب ألوذ به وأرقد فيه ، ولم أذق النوم وسمعت فى سواد الليل أغرب الأصوات وظننتها صادرة من ضوارى الوحوش أو منبعثة

عن الرياح الحسرى اللائذة بأطراف الجلاميد أو مقبلة من طيور مجهولة أجنها الظلام ، وكم دعوت وابتهلت ولم أنم إلا قرب مطلع الفجر .

ولما ارتمى الضوء على وجهى انتبهت من رقادى ، ورأيت أمامى صخرة صماء شماء فعلوتها و بى أمل أن أ كشف لى مخرجا من هذه العزلة المحدقة بى أو أن أبصر مسكنا أو أرى بشرا ، ولكن لما بلغت قمتها لم أبصر شيئاً من ذلك ، وكان أقصى ما وقع عليه بصرى فضاء موحش من الصخور والأجراف الشاهقة وقد تلفعها ضباب قاتم وكان النهار غيمان عبوسا ، ولم أر شجرة ولا مرعى ولا دغلا ، ولم يكن هناك سوى بعض شجيرات ممتنعة النمو منفردة نابتة فى شقوق الصخور ، و إنى لعاجزة عن وصف ما ألم بنفسى من النزوع الشديد والشوق القوى إلى رؤية أحد بنى الإنسان و إن كنت أخشى شره ولا أطمئن إليه ، وبرح بى السغب ويئست من النجاة وجلست أنتظر الموت ، ولكن رجح بى بعد ذلك الميل إلى حب الحياة فنهضت وطفقت أجوب نواحى تلك العزلة والدموع تنهمل من عينى وقد توالت تنهداتى وأمعنت فى الجوبان حتى فقدت السيطرة على نفسى وصرت أجهل ما أفعل ، وكلت قوتى ونفدت طاقتى وكدت أفقد الرغبة فى الحياة ولكنى مع ذلك كنت أخشى الموت .

ولما تدانى الليل أخذت الناحية تبدو لى أرفق وأرغد ، وأخذت تنتعش أفكارى ورغباتى وحل الأمن فى نفسى محل الوحشة وتجددت فى نفسى الرغبة فى الحياة ، وخيل إلى أنى أسمع دوى طاحون على كثب

منى ، فضاعفت خطواتى ، ولا تسل عما غمرنى من الفرح عند ما رأيت الغابات والحقول منبسطة أمامى والتلال المكسوة بالخضرة ، وشعرت بأنى فررت من الجحيم إلى الجنة الخضراء الوارفة الظلال ، وصرت لا أرهب الوحدة ولا أخشى اليأس .

ولم أجد الطاحونة التى توهمتها ، وصادفت منحدر مياه فقلل ذلك من سرورى وحاولت أن أتجرع جرعات من مائه براحة يدى فسمعت أثناء ذلك سعالا خفيفا قريبا منى ، ففاض فى نفسى سرور مشوب بالتعجب لم أعهد فى حياتى مثله ، وأسرعت إلى ناحية الصوت فرأيت فى حافة الغابة عجوزا جالسة على الأرض ومتشحة بملابس سود ، وقد سترت رأسها وأكثر وجهها بقبعة سوداء ، ورأيت فى يدها عكازا فاقتربت منها وسألتها المعونة ، فأومأت إلى بالجلوس إلى جانبها ، وقدمت لى خبزا وقليلا من النبيذ ، وكانت تغنى أثناء تناولى الطعام بصوت مرتفع بعض الأناشيد الروحية ، ولما أتمتها طلبت إلىّ أن أتبعها ، فانتفضت نفسى سروراً بهذا الطلب على الرغم من غرابة منظر العجوز الشمطاء وغرابة صوتها ، وكانت تثب ومعها عكازها بسرعة وخفة ، وفى كل خطوة تضمر وجهها وتغضنه حتى كدت أضحك منها ، وابتعدنا عن الصخور المتأبدات شيئا فشيئاً ، وإن أنس لا أنس رؤية المساء المقبل وما نبه فى نفسى من المشاعر فقدكانت الأشياء جميعها كأنها قد صهرت وتحللت إلى لون أحمر لجينى مفرط الرقة ، وكانت الأشجار الفارعة قد توج قممها وهج الغروب ورفرف على الحقول

نور مشعشع ، وكانت الغابات وأوراق الأشجار ساجية مسلوبة الحركة ، وبدت السماء الصافية الزرقاء كأنها جنة مفتوحة الأبواب ، ورن خرير الجداول وحفيف الأشجار فى الصمت السائد على الطبيعة ، فأخذت تضطرب فى نفسى الخواطر وتختلج الأفكار وأطلت التأمل فى الدنيا وتقلباتها حتى غبت عن نفسى ونسيت دليلتى وكانت روحى وعيناى سائرات فى السحب المستضيئة اللامعة .

ثم سمونا إلى مرتفع مغروسة فيه أشجار البتولا فصرنا نشرف من هذا المرتفع على سهل مخضر النواحى مائج بالأشجار ، وفى وسطه كوخ صغير ، وطرق مسامعنا نباح ، وفى الحال أقبل علينا كلب صغير وأخذ يثب حول العجوز و يملقها و يلعب بذنبه ، ثم تقدم إلىّ بعد ذلك وحدّق بى من كل جوانبى وعاد إلى سيدته ، ونظر إليها نظرة صداقة وود ، ولما هبطنا الوادى سمعت أناشيد غريبة آتية من ناحية الكوخ يغنيها طير من الأطيار قائلا « ما ألذ الحياة المنفردة فى نواحى الغابة البهيجة وأحلاها حيث تمر الأيام متشابهة الصفحات إلى الأبد ، و إنى لأهوى العزلة فى الغابة البهيجة » ، وكان يعيد هذه الكلمات القلائل بصوته المؤثر

وخطوت إلى داخل الكوخ ولم أنتظر إذن العجوز ، وكنا فى الغبش ، ورأيت داخل الكوخ نظيفاً ، وعلى رفوفه بضع كؤوس و براميل وقدور ، ولمحت طيراً فى قفص معلق بالنافذة ، فعرفت أنه مرسل الأنغام والأناشيد المشجية ، وأصابت العجوز نوبة سعال ، وبدت عليها آثار التعب

والإعياء ، ثم أخذت تلاعب الكلب وتناجى الطير وهو يجاوبها بأنشودته المعهودة ، ولم تلتفت إلىّ حتى كأنها لم تتذكر وجودى ، وكنت كلما نظرت إليها تجددت فى نفسى المخاوف وأصابنى القلق ، وكان وجهها دائم الحركة لما يعروه من رجفات الشيخوخة ، ولم أستطع طوال حياتى أن أفهم نوع سحنتها

ولما استعادت قوتها أشعلت شمعة ، ووضعت مائدة صغيرة وأحضرت طعام العشاء ، ونظرت حولها تبحث عنى ، ثم أمرتنى بأن آخذ مقعداً صغيراً فجلست أمامها والضوء بيننا ، وحلت عقدة يديها الضامرتين وأخذت تدعو بصوت مرتفع ووجهها يتلوى ويتجعد وينقبض وينبسط حتى كدت أغرق فى الضحك ولكنى تمالكت نفسى خوف إغضابها

وبعد العشاء عاودت الصلاة والدعاء ، وأرتنى مرقدى فى ناحية صغيرة منخفضة ، ونامت هى فى الغرفة ، ولم ألبث أن ران على جفنى الكرى فقد كنت كليلة متعبة ، ولما استيقظت فى الليل سمعت سعالها وحديثها مع كلبها وطيرها ، وكان الطير كأنه مستغرق فى الأحلام فلم يجاوب إلا بكلمة أو كلمتين بصوته المنغوم ، وكانت تلك الأصوات تمتزج بحفيف أشجار البتولا وشدو العندليب المقبل من بعيد فيتكون منها مزيج غريب فكنت لا أظننى مستيقظة وإنما أحسب نفسى متنقلة فى عالم الأحلام من حلم غريب إلى حلم أعرق منه فى الغرابة

وأيقظتنى فى الصباح ، وعهدت إلىّ فى بعض أعمال المنزل ، وصرت

أغزل ، و إلى الآن أجيد الغزل ، وكلفتني أيضاً بحراسة الكلب والطائر ، ولم أبطىء فى حفظ واجباتى ، وبدأت أتناسى أيامى الماضيات ، وصرت لا أرى فى منظر العجوز ما يثير الغرابة ويدعو إلى الدهشة ، ولا أرى فى كوخها المنعزل عن الناس شيئاً غير مألوف ولا أن هذا الطير مخلوق فى أقصى درجات الغرابة ، ولقد كان لجمال الطائر تأثير شديد فى نفسى ، وكان ريشه يلمع بكل الألوان ، وكان يتبدل على جسمه ورقبته ألوان زاهية مختلفة ما بين اللون الأحمر القانى والأزرق الشديد الزرقة ، وكان عند ما يتغنى ينتفش فى عجب وخيلاء فيبدو ريشه أتم حسناً وأخلب لوناً

وكانت العجوز تذهب إلى الخارج ولا تعود إلا مع الليل فأخرج من الكوخ لاستقبالها وفى صحبتى الكلب وكانت تدعونى بابنتها

ولما تطاول العهد ألفتها وأحببتها ، وكذلك النفس فى عهد الطفولة تألف ما تتعوده ، وكانت تعلمنى فى المساء القراءة ، وقد صارت القراءة بعد ذلك من أكبر أسباب السلوى فى وحدتى المقفرة ، وكانت عندها جملة من الأسفار القديمة تحوى عجائب القصص

ولا تزال تبدو لى ذكرى تلك الحياة الماضية غريبة ، ولم يزرنا أى مخلوق وكنت محصورة فى دائرة هذه الأسرة الصغيرة ، وقد ترك الكلب والطير فى نفسى الأثر الذى يتركه الأصدقاء فى نفوسنا إذا طالت معرفتنا بهم ، ولست أدرى كيف نسيت اسم الكلب ، وقد كان غاية فى الغرابة

وكرت أربعة أعوام على هذه الوتيرة ، وأظننى بلغت الثانية عشرة من

عمرى ، وصارت سيدتى العجوز تثق بى وأخيراً أفضت إلىّ بسر طالما كتمته عنى وهو أن الطائر يبيض كل يوم بيضة فى داخلها جوهرة أو درة ، وكثيراً ما كنت أشاهدها تنفلت إلى ناحية القفص ولكنى لم أكد الذهن فى استطلاع أسباب ذلك ووكلت إلىّ جمع ذلك البيض عند غيابها وحفظه بعناية فى القدور الغريبة الشكل ، وكانت تترك لى طعاماً كافياً ، وتقضى الأسابيع والأشهر بعيدة عن المنزل ، وكانت عجلتى الصغيرة دائمة الرنين ، وكان الكلب ينبح والطائر يغرد ، وقد خيم على الأرجاء فى خارج الكوخ سكون تام لا يشوبه شىء ، ولم يطرق أحد تلك النواحى ، ولم يكن بها وحوش مفترسة ، وقد قنعت بهذه العيشة وربما كان سعيداً من استطاع أن يقضى حياة هادئة لا يرنق صفوها شىء إلى النهاية

وكونت لنفسى من الأسفار القلائل التى قرأتها أفكاراً غريبة عن الدنيا ، وكانت جميع تلك الأفكار مأخوذة من نفسى ومستمدة مما حولى ، ولما قرأت عن الحذاق الأذكياء تصورتهم أشباه معاشرى الجرو ، وكنت إخال الفتيات الفاتنات مثل الطائر ، وأظن أن كل النساء العجائز يشبهن سيدتى العجوز ، وقرأت قليلاً عن الحب ، فصرت أبتدع لنفسى فى الخيال قصص الحب وروايات الغرام ، وكنت أرسم لنفسى صورة أجمل أبطال الأرض وأسبغ عليه صنوف الكمالات وأحبوه بشتى ضروب الحسن وإن كنت أجهل بعد ذلك الاجتهاد كله شكل محياه ، وطالما رثيت لنفسى واستصغرت شأنى عند ما كنت أراه معرضاً عنى مستخفاً بحبى فأفتن فى

استجلاب رضاه وأناجيه مناجاة رقيقة تستلين القلوب القاسية وتستنزل الأعصم من هضابه العالية وأرفع الصوت فى رنة شجية لأسترجع قلبه وأسترد حبه ، وأراك الآن يا سير ولتر تبتسم لذلك ! لقد ودعنا جميعا ذلك العهد فليست بهجته علينا بمردودة ولا أيامه إلينا برواجع

وكنت أفضل أن أترك وحيدة ، فقد كنت أرى نفسى إذ ذاك سيدة المنزل المتصرفة فى شؤونه النافذة الكلمة فى رحابه ، وكان الكلب يحبنى ويطيعنى ، والطير يجاوبنى بأشعاره وقد أكسبها صوته الرخيم رقة ، وكانت عجلتى دائمة الدوران ، ولم أبغ بديلا من تلك الحياة ، وكانت سيدتى عند عودتها من رحلاتها الطويلة تمتدح تدبيرى وتكبر نشاطى واجتهادى ويسرها نمو جسمى وما تراه على من دلائل الصحة والعافية ، وكانت تعاملنى كابنة لها ، وقالت لى مرة بصوتها الخشن الجاف « أنت طفلة صالحة إذا دمت على تلك السيرة وستجنين من وراء ذلك أزاهير الخير وثمار الأعمال الصالحة ، ولكنك إذا نكبت عن ذلك الطريق المستقيم تذبل أغصان سعادتك وتتساقط أوراقها ويحل بك العقاب ، وإن كانت العقوبة قد تجيء عرجاء متأخرة » . ولم أعر كلماتها هذه كبير عناية فقد كنت فى ذلك الوقت فرحة طروباً وكان يبدو المرح والحبور فى أخلاقى وحركاتى ، وأعادت على سمعى فى الليل ما قالته فى الصباح ، ولم أعلم سر هذا التكرار ، وبدأت أتدبر كلماتها ، وكنت قرأت عن المال والثروة نخطر ببالى أن مجوهراتها قد تكون شيئاً فى غاية النفاسة ، ولم يمض زمن طويل حتى اختمرت هذه

الفكرة فى نفسى وأخذت تزداد وضوحاً وجلاء وتنتفى عنها غياهب الشكوك والمخاوف ، ولكن ما هو ذلك الطريق المستقيم وما الذى تقصده بقولها التنكيب عنه وما الذى ترمى إليه من وراء ذلك كله ؟

وكنت بلغت حينذاك الرابعة عشرة ، ومن شقاء الإنسان أن يصاب بالفهم و يبلى بالفطنة وأن تودعه البراءة والبساطة ، ورأيت أننى أستطيع الاستيلاء على الجواهر والطير فى غياب العجوز وأنطلق بها . وشاقتنى رؤية الدنيا التى قرأت عنها فى الكتب ، وظننت أن المقادير قد تسعفنى فألتقى بذلك البطل الهجان أنضر أهل الأرض حسناً المقيم فى ذاكرتى ، وكانت هذه الفكرة فى بادىء الأمر فكرة عارضة وخطرة طارئة ، ولكنها صارت تعاودنى عند ما أجلس إلى جانب مجلتى ويطول بينى و بينها الغلاب ، وفى بعض الأوقات كانت تظفر بى وتتغلب علىّ إلى حد أنى أتلفت إلى نفسى فأرانى فى فاخر الثياب مزدانة بساطع الجواهر وحولى الأميرات والفرسان

وكنت كلما استفقت من تلك الأحلام ونظرت حولى فرأيت الكوخ الصغير حزنت أشد الحزن ، وكانت العجوز ترانى قائمة بإنجاز واجباتى مكبة على أعمالى ولذا لم تتعب نفسها فتيلا لتتعرف ما يدور برأسى من الأفكار وما يلم بنفسى من الإحساسات

وأخبرتنى فى ذات يوم أن غيبتها ستطول ، ونصحت لى بأن أكون شديدة اليقظة دائمة الانتباه للمنزل ، وأن لا أدع الزمن يمر بى مملاً ثقيل

الخطى ، وغشى نفسى الخوف حين فراقها فقد كنت أشعر بأن هذه آخر مرة أراها ، وأتبعتها الطرف حتى اختفت ولم أعلم بواعث الحزن الذى غمر نفسى وسال بى سيله بعد مسيرها ، وكأنما كان الغرض الذى رميت إليه ماثلاً أمامى دون أن أعى ذلك أو أتعمده

وتعهدت الطير والكلب بعناية أتم ورعاية أكثر مما كنت أفعل فى الأيام السابقة ، و بعد ذهابها بأيام قلائل نهضت فى الصباح وقد جمعت العزيمة على ترك الكوخ وحمل الطائر والارتحال لمشاهدة الدنيا التى قرأت الكثير عنها ، وكنت أشعر بضيق وتردد ، كنت أود البقاء فى الكوخ ولكن فكرة البقاء مع ذلك كانت تكربنى وتؤلم نفسى ، وشب بين جوانحى صراع شديد كأننى كنت منه بين روحين متعاكستين ، فتارة كانت تبدولى الوحدة الهادئة جميلة مستعذبة ، وطوراً كانت تتمثل لى صورة الدنيا الجديدة محفوفة بالغرائب التى تقتاد الأهواء وتسحر النفوس

وكنت فى حيرة من أمرى ، وكان الكلب لا ينقطع عن الحركة والقفز حولى ، وانتشرت أشعة الشمس فوق الحقول والتمعت أشجار البتولا الخضر ، وكنت أشعر بأن هناك عملًا على أن أبادر إلى إنجازه ، ثم نهضت وقبضت على الكلب وحبسته فى الكوخ مقيداً وحملت قفص الطائر تحت ذراعى ونبح الكلب نباحاً متواصلًا لتذمره من تلك المعاملة التى لم يتعودها ونظر إلىّ نظرة توسل واستعطاف ، ولكنى خشيت وجوده معى وحملت قدراً من قدور الجواهر وخبأته معى وتركت الباقى

ولما عبرت الباب أحنى الطير رأسه بشكل غريب وعالج الكلب صدع قيوده فلم يستطع وأرغم على البقاء والركون إلى السكون

ولم أسلك طريق الصخور الأوابد ، وسرت فى طريق معارض لها ، وكان الكلب لا يزال ينبح ، وكان نباحه يمس صميم قلبى ويهز نفسى ، وحاول الطير أن يغنى فأسكتته اهتزازات القفص المتوالية وأنا أحمله وكنت كلما ابتعدت قل النباح وخَفَتَ حتى غابت آثاره من أذنى فبكيت وحاولت العودة ولكن شوقى إلى رؤية الدنيا منعنى من ذلك

ولما أقبل الليل كنت قد جزت التلال وبعض الغابات ولم أجد مندوحة عن التعريج على قرية ، من القرى القريبة ، ولما دخلت الخان للمبيت تورد وجهى حياء وأرونى غرفة ومرقداً ، فنمت نوماً هادئاً ولكنى رأيت العجوز فى الحلم وهى تتوعدنى

ولم تكن سياحتى ملأى بالتنوع ولا حافلة بمختلف الحوادث ، وكنت كلما أمعنت فى السير تذكرت سيدتى العجوز وكلبها الصغير ، ورجحت أن الكلب سيموت من الجوع ، وكنت فى أثناء سيرى بالغابة أخشى أن ألتقى فجاءة بسيدتى ، وهكذا كنت أسعى بين الدموع والحسرات ، ولما كنت أقف لأستريح وأضع القفص على الأرض كان يطلق الطير أغنيته فيعيد إلى نفسى صورة المسكن الجميل الذى هجرته ، والطبيعة البشرية سريعة النسيان ، ولذا خلت أن رحلتى السابقة فى عهد الطفولة لم تكن محزنة تعسة كرحلتى الحاضرة وكنت أتمنى عودة ذلك العهد

و بعت بعض الجواهر فى الطريق ، و بعد مسير عدة أيام لاحت لى قرية فقصدتها ، وانتابنى حين دخولها شعور غريب لم أدر سببه ، ولكننى تذكرت بعد ذلك أنها القرية التى ولدت بها فاشتد تعجبى وتدفقت من عينى الدموع دموع الحزن والسرور لما ثار بنفسى من قديم الذكريات ، ورأيت أشياء كثيرة قد تغيرت وحال حالها ومنازل جديدة لا عهد لى بها وأخرى كنت أعهدها جديدة البنيان قد تداعت جوانبها وعبث بها البلى ، وكان كل شيء أصغر حجما وأضيق نطاقاً مما تصورت ، واستفزنى الطرب لأنى سأرى والدىّ بعد تلك الغيبة الطويلة ، وعرفت كوخهما الصغير ومدخله المعهود وكان مزلاج الباب لايزال فى موضعه ، وخيل إلى أنى أقفلته أمس ووجب قلبى لما شرعت فى رفعه ، ولكن وجوها لم أكن أبصرتها من قبل طالعتنى من المنزل ونظرت إلى وحدقت فىّ فسألت عن الراعى مارتن ، فأخبرونى أنه توفى هو وزوجته منذ ثلاث سنوات ، فأسرعت فى ترك القرية وأنا أكفكف الدموع وأموّه العبرات ، وكنت قد رسمت لنفسى بريشة الأمانى الخادعات صورة أنيقة للقائهما بثروتى الطائلة ، وكنت أعجب من أحكام المصادفة وكيف أن أحلام الكنوز والمال التى كنت أراها قد أصبحت حقيقة ملحوظة ، ولكن كل تلك الأمانى لم تلبث أن أصبحت باطلا وتضليلا ، وقد طوى الآن كل شيء ولم يعد فى وسعهما أن يقاسمانى الثروة والسعادة ، وقد كان لقاؤهما هو الأمل المرجّى ، ولكن هذا الأمل قد انقضى ولن يعود أبد الدهر .

وقصدت مدينة حسنة الموقع جيدة الهواء واستأجرت منزلا صغيراً محوطاً بحديقة واتخذت لى خادمة ، وإنى أعترف الآن بأنى لم أجد الدنيا غريبة رائعة كما صورتها لنفسى ، وتناسيت بعد ذلك المرأة العجوز وأسلوب حياتى السابق وعشت قانعة راضية .

وكان الطير قد امتنع عن الغناء مدة طويلة ، ولذا اشتد خوفى حين عاود الغناء فى ذات ليلة بنغمة مختلفة مردداً « ما ألذ الحياة المنفردة فى الغابة البهيجة وأحلاها حيث تمر الأيام متشابهة الصفحات إلى الأبد ! وإنى لأهوى العزلة فى الغابة البهيجة » ولم تذق عيناى الغمض تلك الليلة ، وأخذت تثور فى نفسى كوامن الذكريات وشعرت شعوراً أقوى من شعور الأيام السابقة بأنى أسأت التصرف وحدت عن الحق ، وكانت رؤية الطير تنكأ جرح نفسى وتستورى جمراتى الخابية ، وكان يديم النظر إلىّ ثم صار لا ينقطع عن التغنى بصوت حاد أعلى من صوته السابق ، وكنت كلما نظرت إليه ازدادت شجونى وعظمت مخاوفى ، ولما أعيانى أمره فتحت القفص وأخرجته منه وأمسكت برقبته وضغطت عليها بأناملى ، فنظر إلى فترفقت به وخففت الضغط ولكنه كان ميتاً فواريت بقاياه فى الحديقة

بعد ذلك خشيت خادمتى وأسأت بها الظن فكنت أكثر من التلفت ورائى وخفت أن تقتلنى الخادمة أو تسلبنى جواهرى ، وكنت عرفت من زمن فارساً فى ميعة الشباب فهويته وخفق قلبى بحبه وقد منحته يدى وبذلك يا سير ولتر تنتهى قصتى »

فقال أكبرت متحمساً « كان يلزم أن تكون قد نظرتها فى ذلك العهد ورأيت شبابها الغض وما أفاضه عليها من الرشاقة أسلوبها المنفرد فى الحياة. ولم أكن أملك شيئاً وقد أتتنى كل هذه الثروة من وراء حبها وزواجى بها وقد انتقلنا إلى هنا بعد الزواج ، ولم يجلب لنا زواجنا فى أى وقت من الأوقات سوى اليمن والخير »

فقالت برتا « لقد قضينا أكثر الليل فى الحديث والثرثرة فلنذهب الآن للفراش » ، ونهضت لتتوجه إلى مخدعها ، فقبل السير ولتر يدها وحياها وقال لها شكراً يا سيدتى النبيلة ، إنى أستطيع أن أتصور صورتك وأنت إلى جانب طيرك المغرد الصداح وكيف كنت تطعمين « ستروهميان الصغير »

وذهب ولتر أيضاً إلى مرقده و بقى اكبرت فى القاعة يتمشى ذهاباً و إيابا وهو قلق النفس ثائر الروح ، ثم قال لنفسه أخيراً « إن أكثر الناس بله حمقى ، وأنا نفسى قد طلبت إلى زوجتى أن تقص على صديقى تاريخ حياتها ، ولقد وضح لى الآن أن ثقتى به ليست فى محلها ، وأن صديقى سيستغل تلك الثقة ، وسيبوح للغير بسرنا ، وسينفس علينا جواهرنا و يختلق الأعذار و يبتكر الحيل ليسلبنا إياها ، وتلك شيمة الإنسان وطبيعته »

وخطر بباله أن ولتر حياه تحية فاترة على عكس ما كان ينتظره بعد أن نفض على مسامعه أسرار حياته ودخائلها ، والإنسان إذا أساء الظن رأى فى كل صغيرة سبباً يؤكد له سوء ظنه ، وكان اكبرت من ناحية أخرى

يلوم نفسه ويعنفها لأنه صار يشعر بمثل هذا الشعور الوضيع من ناحية صديق من أعز أصدقائه عليه ، ولكن لم يكن فى وسعه اطراح تلك الأفكار ، وقد قضى الليل فى معالجتها ولم ينم إلا قليلا

واستيقظت برتا فى صباح اليوم التالى مريضة ولم تستطع الحضور لتناول الإفطار ، وأغضى ولتر عن السؤال عن صحتها ، وودع زوجها وداعا فاتراً ، ولم يفهم اكبرت سر هذا الانقلاب ، ثم توجه لرؤية زوجته ، فوجدها محمومة ، وقالت له إن قصة الليلة الماضية أثارت شجونها

ومنذ ذلك الحين لم يزر ولتر قلعة صديقه إلا نادراً ، وكان يظهر ليقول كلمات قليلة لا معنى لها ثم يذهب لسبيله ، ولم يسترح اكبرت لهذا المسلك ، وكتم ما فى نفسه عن ولتر وعن زوجته ، ولكن كانت تبدو عليه لوائح الهم والقلق والخوض فى غمرات الأفكار

وازداد مرض برتا شدة ، واشتد خوف الطبيب على صحتها ، واختفى التورد من وجنتيها وقل توقد عينيها وفى ذات صباح استدعت زوجها إلى جانب فراشها وأمرت وصيفاتها بالابتعاد ، وقالت « يا اكبرت العزيز ، أود أن أفضى إليك بسر قد سلبنى الصبر والتأسى وأفسد صحتى ولو أنه قد يظهر ضئيل الأهمية قليل الشأن ، ولعلك تذكر أننى حين كنت أقص قصتى لم أستطع أن أتذكر اسم الكلب الذى كان يمكث طويلا إلى جانبى ، وفى الليلة نفسها قال لى السير ولتر وهو يستأذن للذهاب إلى مرقده « إنى أستطيع أن أتصور صورتك وأنت جالسة إلى جانب طيرك المغرد وكيف

كنت تطعمين ستروهميان الصغير » والآن هل هذا من قبيل المصادفة ؟ أو هل هذا ضرب من التخمين ؟ أو هل كان يعرفه من قبل وذكره لغرض ؟ وإذا صح ذلك فانه يثبت أن لهذا الرجل صلة شديدة بتاريخ حياتى ، وأنى فى بعض الأحيان أخادع نفسى وأكذب حديثها ووسواسها وأحاول أن أدخل عليها أن هذه المسألة ضرب من الأوهام ، ولكن وا أسفاه إنها حقيقة ثابتة لا سبيل إلى إنكارها ، وقد ساءنى أن يعيننى رجل غريب على استعادة ذكريات أسرار حياتى ودخائلها فماذا تقول فى ذلك يا اكبرت ؟ »

فنظر اكبرت إلى زوجته المريضة وقد ظهرت عليه آثار الانفعال والتأثر ، ووقف صامتاً مطرقاً ذاهباً من الفكر فى كل مذهب ، ثم تكلم ببعض كلمات يرفه بها عن نفسها ويهون عليها الأمر ، ثم ترك حجرتها ، وذهب إلى حجرة بعيدة وأخذ يتمشى فيها ذهاباً وإيابا وهو مضطرب الخاطر أشد اضطراب ، وقد مضت سنوات طويلة وولتر صديقه الوحيد ، ولكنه أصبح الآن الشخص الوحيد الذى يقلقه وجوده وتسوؤه حياته ، وظن أنه إذا زال من طريقه هذا الإنسان ارتفعت عن قلبه الأثقال وصفت نفسه ، وتنكب قوسه وخرج للصيد والقنص رجاء أن يصرف عن نفسه هذه الأفكار

وكان اليوم من أيام الشتاء العابسة العاصفة ، وكان الجليد يغطى التلال ويحنى فروع الأشجار ، فطاف أكبرت فى النواحى المجاورة لقلعته ، وكان العرق يتصبب من جبينه ، ولم يجد صيداً فزاده ذلك كدراً ، وبينا هو كذلك إذ لمح من بعيد شيئاً يتحرك ، ولما لاحظه تبين له أنه ولتر يجمع

الطحلب من جذوع الاشجار ، ، فخنى قوسه وهو غير شاعر بما يصنع فنظر ولتر حوله وأشار إشارة تهديد وكان السهم قد انطلق فسقط مصاباً به

فشعر ا كبرت بأن همه قد زال وبأن نفسه قد هدأت ، ولكن خوفاً خاصاً ساقه إلى القلعة ، وكان الطريق طويلا متراخى الشقة لأنه كان قد توغل فى الغابات ، وعند وصوله القلعة وجد زوجته برتا قد توفيت وتحدثت قبيل وفاتها كثيراً عن ولتر والمرأة العجوز

وعاش ا كبرت بعد هذه الحادثة ردحاً من الزمن فى عزلة تامة ، وقد كان طوال حياته أليف الحزن لأن تاريخ زوجته العجيب كان يقلق باله ويثير خواطره وكان دائماً يخشى حدوث كارثة رهيبة أو خطب مروع ، وكان الآن فى نزاع شديد مع نفسه ، وكان قتله لصديقه لا يبرح باله فيظل فى ندم مستمر

وكان من الحين إلى الحين يزور المدينة المجاورة ويخالط الناس وينغمس فى الملاهى ليصرف عن نفسه هذه المشاعر ، وكان مشتاقاً إلى صديق يملأ فراغ نفسه ، ولكن عند ما كان يتذكر ولتر كان يفزع من فكرة لقاء الصديق لأنه كان واثقاً من أنه قليل الحظ فى الصداقة ، وقد عاش طويلاً مع برتا فى سكون وديع محبب إلى النفس ونعم بصداقة ولتر سنين عدة ، ولكنهما الآن قد أمعنا فى الغياب وطاحت بهما عوادى الدهر ، وكانت تمر به لحظات حين يطيل التفكير فى ذلك تتراءى له حياته كأنها قصة خرافية وليست تاريخاً صحيحا لرجل حى

ثم تقرب من ا كبرت الصامت الحزين فارس شاب يدعى هيجو

وأظهر له خالص العطف وصادق الود فعجب اكبرت لذلك أشد العجب ورحب بصداقته وزاده تقديراً لها أنها جاءت على غير انتظار ، وأصبح الاثنان متلازمين فى أكثر أوقاتهما ، وكان هيجو يظهر لصديقه الرعاية التامة والعناية الفائقة ، ولم يكن أحدهما يركب إلى الصيد دون أن يصطحب الآخر، وكانا يزوران معاً كل نادٍ حفيل و يندر أن تراهما منفصلين.

ولم يسر اكبرت بصداقة هيجو سوى فترة يسيرة ، لأنه كان يشعر بأن هيجو قد أحبه خطأ وأنه لا يعرفه وأنه يجهل تاريخه ، واستولت عليه رغبة ملحة فى أن يكشف له مجاهل ضميره و يطلعه على مصون سره ليستوثق من صداقته ، وليعرف أهو صديق أم غير صديق ، ولكنه كان يخشى أن هيجو قد يستنكر جريمته و يعيب عليه فعله ويستريب فى صداقته وكان يقضى من أجل ذلك الساعات مفكراً فى تفاهته وقلة قيمته و يشعر بأن أى إنسان يقف على سره و يعرف تاريخه لا بد من أن يحتقره ولا يعبأ به ، ولكنه مع ذلك لم يستطع مغالبة نفسه ورد جماحها ، فأفضى إلى هيجو بسره حين ركوبهما للصيد منفردين وسأله بعد ذلك هل يقبل صداقة قاتل ، فبدا على هيجو التأثر وحاول أن يهدئ خاطره ، فعاد اكبرت إلى المدينة وقد هدأ باله وصفت نفسه

ولكن من سوء حظه الملازم أنه كان يجد فى إبان الثقة والاطمئنان ما يدعو إلى الظن والريبة فما عتم أن دخل قاعة الاجتماعات العامة مع صديقه حتى رأى فى ضوء الأنوار اللامعة أن نظرات هيجو مقلقة لا تسر

الخاطر وأحس أن فى ابتساماته شراً وخبثاً ، وأنه يحادث بقية الجماعة ولا يحادثه كالمعتاد ولا يعبأ بوجوده ولا يعيره أدنى اهتمام ، وكان فى الجماعة فارس متقدم فى السن قد أظهر دائماً لا كبرت العداء والبغضاء ، وطالما أكثر من السؤال عن ثروته وماله وزوجته بأسلوب خاص ، وكان هيجو قد أقبل على هذا الفارس يحادثه ويسارّه وكانا يرميان اكبرت بنظرات حشوها شزر ، فأكد ذلك سوء ظن اكبرت وجال بفكره أنه قد خدع واستولى عليه غضب شديد ، ولما أطال النظر إلى وجه هيجو استبان فى وجهه ملامح ولتر ، ولما أعاد التحديق فى وجهه وثق من أن الذى يحادث الفارس هو ولتر نفسه ، فخرج من القاعة مسرعاً وهو لا يملك نفسه فزعاً وجزعا وترك المدينة تحت أستار الليل وعاد إلى قلعته بعد سياحة طويلة

ولما وصل إلى هناك أخذ يتنقل من حجرة إلى أخرى فى سرعة واضطراب وانثالت عليه الأفكار المخيفة والخواطر الرهيبة ولم تغتمض عينه تلك الليلة ولم يقر له قرار حتى ظن أنه قد أصابته جنّة من هول ما رأى ، ثم أخذ يستحضر فى مخيلته كل ملامح ولتر فازداد الأمر فى عينه غموضا والتباسا وصمم على القيام برحلة لتهدأ خواطره الثائرة وينفس عن نفسه المكروبة وقد يئس من الصداقة والمجتمع جملة ونفض يديه منهما .

وترك القلعة ولم يرسم لسيره خطة ولم يحفل بالنواحى التى مر بها ، وفى ذات يوم بينا هو يستحث جواده فيسرع به إذ وجد نفسه بغتة محوطا بسلاسل من الصخور المشتبكة لم يستطع أن يجد لنفسه من بينها مخرجا ،

وبعد لأى لقى مزارعا مسناً فأرشده إلى طريق يمر إلى جانب شلال ، فأراد أن يثيبه على إرشاده إياه بشيء من النقود فأبى المزارع أن يأخذ شيئاً ، فقال أكبرت « وماذا يجدى ذلك إنى إخال هذا الرجل ولتر نفسه » ثم نظر حوله فرأى ولتر فاستنهض جواده فانطلق الجواد يعدو ملء عنانه فوق المروج والحقول حتى سقط من الإعياء ، فأسرع أكبرت إلى الأمام جريا على القدم فصادف تلا فتسلقه وهو مسترسل فى أحلامه ، وخيل إليه أنه يسمع نباحا على مقربة منه ، وكانت أشجار البتولا تتهامس وتتناجى ، وسمع أكبرت أغنية غريبة اللحن تقول « لقد عاودت الإقامة فى الغابة البهيجة منفردة حيث لا يستطيع أحد أن يغتالنى ولا أن تصل إلىّ الشرور وسأبقى هنا فى الغابة الجميلة » ففقد أكبرت الإحساس والوعى ، ولفه ليل معتكر من الذهول والحيرة واشتبه عليه الأمر ولم يدر أهو الآن فى حلم أم أنه قد حلم من قبل بزوجة وصديق ، وكان يرى الغريب الرائع ممتزجاً بالمألوف المعهود وتبدت له الدنيا حوله مسحورة وأنه عاجز عن التفكير والتذكر

ورأى عجوزاً مقوسة الظهر تدب فوق التل وهى تسعل وفى يمينها عكاز ، ثم صاحت به « أتستطيع أن ترد إلى طيرى وجواهرى وكلبى ؟ أنظر كيف تعاقب الإساءة نفسها ؟ لقد كنت أنا ولتر وكنت كذلك هيجو » فقال أكبرت وقد جمجم لنفسه « يارب السماء : فى أى عزلة رهيبة قد أمضيت حياتى ! »

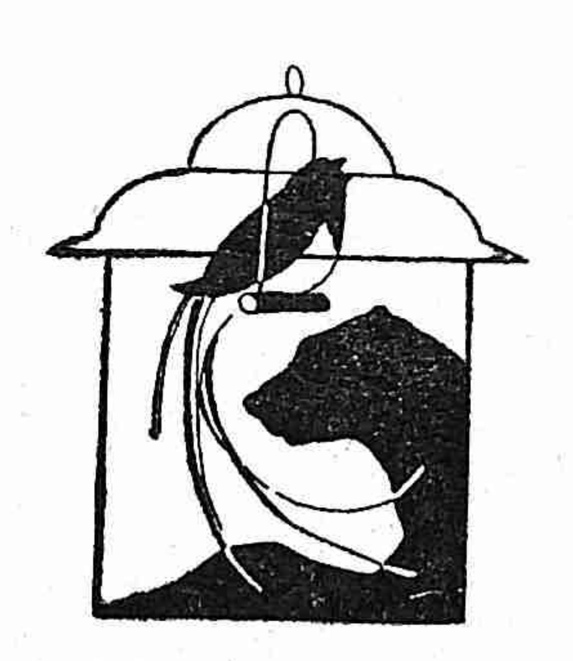
ثم قالت العجوز « ولقد كانت برتا أختك »

فسقط اكبرت على الأرض — واسترسلت العجوز تقول « لماذا تركتنى وخدعتنى ، لقد كانت الحياة ستبتسم لها ، وأمضت وقت التجربة والاختبار ، ولقد كانت ابنة أحد الفرسان ، وقد رباها فى منزل صياد ، كانت ابنة أبيك ! »

فقال اكبرت « لماذا شعرت من قبل بظل تلك الفكرة الرهيبة ولمحتها من بعيد ؟ »

فأجابته « لأن والدك أخبرك مرة وأنت فى مطالع الشباب أنه لا يستطيع أن يبقى ابنته معه من أجل زوجته الثانية »

وكان أكبرت مطروحاً على الأرض حائراً يلفظ آخر أنفاسه ، وكان يسمع وهو يغيب عن نفسه فى سكرات الموت العجوز تتكلم والكلب ينبح والطائر يعيد أناشيده الندية وأغانيه الروية



قصـــة الكأس

(للكاتب الألمانى لوديغ تيك)

الفصل الأول

كانت أجراس الظهر تدق من الكنيسة الكاتدرائية العالية ، وكان الرجال والنساء فى جيئة وذهوب بالساحة المنبسطة أمام الكنيسة ، وكانت العربات تكر وتسير ، وكان القساوسة يحثون الخطى متجهين إلى كنائسهم المختلفة ، وكان فرديناند واقفاً على السلم العريض يرمق الناس وهم قادمون للصلاة ، وكانت أشعة الشمس تلمع فوق الأحجار البيض ، وكان الناس يبحثون عن ملجأ يرد لوافح الشمس وحرها ، وكان هو الوحيد الذى قضى وقتاً طويلاً معتمداً على عمود بين الأشعة الحارة اللافحة غير محتفل بها كأنه لا يحس وقداتها ولا يتأذى بلذعها لأنه كان مستغرقاً فى طوائف من الأفكار كانت تتجمع فى عقله ، وكانت تنتظم فى سلك ذاكرته صور حياته السابقة ، وكان يوقظ من نفسه كل عزيمة راقدة ويشب منها كل همة خابية بذلك الشعور الطريف الذى تخلل حياته وأفاض صبغته على كل رغباته

وفى مثل هذه الساعة من العام الفائت كان واقفاً هنا ناظراً إلى النساء والفتيات المجتمعات بقلب غير مكترث ووجه متهلل مشرق ، وكان يشاهد

الحفلة المزينة المزخرفة وتلتقى بألحاظه فى مكر وخلابة ألحاظ مترعة بالعطف والحنان ، وكانت خدود تتورد خجلا وألحاظ ترتد حياء ، وكانت عينه المشغولة الدائبة الحركة تلمح القدم الدقيقة وكيف كانت تصعد درج السلم وكيف كان الثوب الهفهاف يتمايل على جوانبه فتظهر من تحته أرساغ القدم اللطيفة ، واجتازت الساحة حسناء ريانة الشباب مرتدية ملابس سوداً ، وكانت هيفاء نبيلة الطلعة غاضة الطرف فى انكسار وفتور ، وكانت تصعد السلالم غير ملتفتة إلى شىء فى رشاقة مستحبة ، وكان ثوبها الحريرى مفاضاً على أبرع الصور وأجمل الأشكال ، ولما بلغت آخر درج السلم رفعت رأسها بغتة ، فالتقى لحظها بلحظه فصب فى عينه شؤبوباً من الضوء الصافى

وقد أصمته سهام تلك النظرة ونفذت إلى صميم نفسه ، ثم داست قدمها أطراف الرداء ، وبينما هو يسرع إليها لم يستطع أن يمنعها من الركوع أمام قدميه لحظة وهى فى شكل يطّبى نافر الأهواء ويسلس جامحها ، وأخذ بيدها وأنهضها فلم تنظر إليه ، كانت كلها حياء وخجلا ، ولما سألها هل أصابها جرح أو لا لم تملك إجابته ، فتلاها إلى الكنيسة ، ولم تكن روحه سوى مرآة تتراءى فى صقالها الصورة التى كانت راكعة أمامه وتلك الزهرة المتفتحة التى مثلت لعينه

وفى اليوم التالى زار مدخل الكنيسة ، وصار هذا المكان مقدساً فى عينه ، وقد كان فى نيته قبل ذلك مواصلة الأسفار ومتابعة الرحلات ، وكان رفقاؤه ينتظرونه بصبر وقلق فى المنزل ، ولكن منذ ذلك اليوم صار

هذا المكان مألف نفسه ومهوى أفكاره ومعقد أهوائه وكان يراها فى أوقات كثيرة ، ولم تكن هى تتجنب لقاءه ، ولكن كانت لا تستطيع أن تقترب منه أكثر من دقائق متقطعة منتهبة من خلسات الزمان وغفلات العيش لأن أسرتها الواسعة الثروة العريضة الجاه كانت تشدد الرقابة عليها ، وفضلا عن ذلك كان لها خطيب عظيم المكانة قوى النفوذ شديد الغيرة

وكانا يتبادلان الاعتراف بالحب ولكنهما لا يعرفان مايصنعان بعد ذلك ، لأنه كان غريباً وليس فى طاقته أن يقدم لمحبوبته ثروة طائلة كما كان ينتظر ، وكان يشعر الآن بخصاصته ونضاضة وفره ، ولكنه لما كان يعيد النظر فى أساوب حياته السالفة كان يخيل إليه أنه سائر إلى طريق الغنى والثروة وانه سيغادى العيش أخضر صافياً فقد أصبحت حياته طاهرة نقية وصار قلبه مجالا للعواطف الكريمة وكأن الطبيعة كشفت له الغطاء عن محاسنها وأطلعته على فتان جمالها ورائع حسنها ، وصار يشعر بأنه ليس بعيداً عن الدين والعبادة ، وكان الآن وهو يجوز مدخل الكنيسة وظلال المعبد الخفية الغامضة تنتابه مشاعر لم يكن يعهدها فى أيام لهوه وطيشه ، وقد هجر أصحابه ومعارفه وعاش للحب ، ولما كان يمر من الشارع الذى فيه منزلها ويراها مطلة من النافذة كان يقضى نهاره سعيداً رخى البال منشرح الصدر ، وكان يخاطبها فى أغلب الأحيان فى غبش المساء ، وكانت حديقة منزلها مصاقبة لحديقة صديق له لم يكن عالما بسره ، ومر عام على هذه الوتيرة

مرت كل هذه المشاهد فى ذاكرته ، ثم رفع عينيه فإذا بتلك الصورة

النبيلة تنسل إلى الساحة الممتدة أمامه ، وكانت تشرق بين الجموع المحتشدة إشراق الشمس ، وصدحت فى قلبه الملب بالأشواق موسيقى عذبة ، ولما دنت منه انفلت إلى الكنيسة ، وهناك قدم لها الماء المقدس ، وكانت أصابعها البيض تهتز عند ما تلمس أصابعه ، ثم انحنت شاكرة فى رقة ووداعة ، ثم تبعها وسجد على كثب منها ، وكان قلبه يكاد يذوب حياء و يقطر حزنا ، وكان يظن أن روحه من جروح الاشتياق الرغيبة وصدوعه الدامية تكاد تفنى فى توسلات مستحرة ، وكانت كل كلمة من كلمات القسيس تدوى فى نواحى نفسه ، وكل نغمة من نغمات الموسيقى كان ينهمر سيلها الصافى إلى صدره فيزداد حباً و إيمانا ، وكانت شفتاه ترتعشان والفتاة الحسناء تدنى صليب سبحتها إلى فمها الياقوتى ، فما كان أجهله بالحب والإيمان قبل ذلك ، أما الآن فقد أصبح قلبه ممتلئاً بالحب حافلاً بالإيمان

ورفع الكاهن القربان ودق الجرس ، فانحنت فى ضراعة وخشوع ورسمت الصليب على صدرها ، وكأنما مس مشاعره ووجدانه فى التو واللحظة مثل ومض البرق ، ومثل له أن الصورة التى على المذبح قد دبت فيها الحياة وأن النوافذ الكامدة الألوان قد استحالت جنة مشرقة بالأضواء ، وفاضت مدامعه واستبقت عبراته نخفضت من نيران قلبه وهدأت بعض ما به

وانتهت الصلاة فقدم إليها الإناء المقدس وتبادلا بعض الكلمات ثم انسحت هى ، وتريث هو قليلا كى لا يسترعى النظر ، واتبعها الطرف حتى اختفت حاشية ثوبها وصار يشعر شعور الجوابة الحائر فى نواحى غابة

متباعدة الأطراف متكاثفة الأشجار وقد غابت عن نظره آخر أشعة من شعاع الشمس الغاربة ، ولكنه انتبه من غفوته وأحلامه واستيقظ من تأملاته وسبحاته عند ما ربتت على كتفه يد عجوز ضامرة ودعاه بعض الناس باسمه

فأجفل وتراجع إلى الوراء وعرف صديقه ألبرت المسن الملتهب الطبع الدانى الغضب والذى كان يعيش فى عزلة عن الناس ، وكان منزله المنفرد مباحاً لفرديناند وحده ، وقال له بصوته الأجش « أتذكر الوعد الذى ارتبطنا به ؟ »

فأجابه فرديناند « نعم ، وهل عقدت النية على أن تفى اليوم بوعدك ؟ »

فأجابه البرت « نعم وفى هذه الساعة فاتبعنى إذا شئت »

فسارا فى المدينة إلى شارع قاص ، وهناك دخلا عمارة كبيرة ، وقال له البرت « اليوم يلزم أن تتغلغل معى إلى غرفتى البعيدة المنعزلة حتى لا يكدر صفاءنا أحد ، ثم مرّا من غرف عدة وصعدا بعض الدرج ثم اجتازا ممرات كثيرة ، وكان فرديناند يظن أنه قد أجاد معرفة هذا المنزل وأحاط بكل نواحيه خبراً ، وقد تعجب من كثرة غرفه وحجراته وتنسيقه الغريب وكان يزيد فى دهشته أن يسكن مثل هذا المنزل الفسيح الرحب شيخ أعزب منفرد مع عدد قليل من الخدم ولا يترك الحجرات الزائدة عن حاجته للناس

ثم فك البرت مزلاج إحدى الحجرات وقال « ها هنا المكان الذى

قصدته » ، ودخلا حجرة واسعة عالية مغطاة الحيطان بنسيج أحمر اللون محلاة أطرافه بخطوط مذهبة ، وكانت المقاعد مغطاة بالقماش الأحمر نفسه ، وكان يأتى ضوء أرجوانى من خلال الأستار الحمر الحريرية الضخمة ، ثم قال له البرت « انتظر قليلا » وذهب إلى حجرة أخرى ، فتناول فرديناند بعض الكتب فوجد بها كتابة غير واضحة ودوائر وخطوطا ولوحات عجيبة ، ومن الأشياء القليلة التى استطاع قراءتها استبان له أنها كتب فى الكيمياء ، وقد كان يعلم من قبل اشتهار ذلك المسن بصنع الذهب ، وكان هناك مزهر معلق على المنضدة وكان محلى بالصدف وخشبه ملوناً ، وعليه صور تمثل طيوراً وأزهاراً بديعة الرسم غاية فى الإتقان ونهاية فى الدقة ، وفى وسطه صدفة كبيرة فى داخلها صور مستديرة متقاطعة مثل وسط النافذة فى الكنيسة القوطية الطراز وقد تمهر فيها صانعها حتى أوفى على الكمال .

ولما عاد البرت ورآه يفحص المزهر قال له « أنت تتأمل فى صنع مزهرى ، إن عمره مئتا سنة وقد أحضرته معى تذكاراً لرحلتى إلى اسبانيا ، ولكن دعنا من هذا وخذ مجلساً » .

فجلسا إلى جانب المنضدة وكانت مغطاة بقماش أحمر مثل سائر الحجرة ، ووضع الشيخ المسن عليها شيئاً ملفوفاً بدقة ولباقة ، ثم استرسل يقول « رفقاً بشبابك الغض ، وعدتك أخيراً بأن أستطلع لك الغيب لأنبئك هل تطالعك السعادة أو لا ، وسأقوم الآن بإنجاز هذا الوعد و إن كنت أنت قد تظن الأمر هزلا ، ولا يلمم بك الخوف لأن ما أحاوله سيقع بدون خطر مرعب

أو عزائم مخيفة أو أشباح رهيبة تزعج مشاعرك وتقلق حواسك ، والعمل الذى نحن بصدده لا يؤتى إلا من ناحيتين وهما إما أنك كاذب فى حبك وفى هذه الحالة لايجدى العمل ولا يثمر إذ لا شىء يكشف لى سره و يزيل الستار عن خبيثته ، و إما أنك تكدر سكون الوحى وتفسده بأسئلة لافائدة منها أو بحركة عجلى أو بتركك مكانك وتبديدك الصورة ، فعدنى الآن بأن تلزم الهدوء وتحتفظ برباطة الجأش »

فوعده فرديناند بذلك وأخرج الشيخ المسن الربطة التى كانت فوق المنضدة من لفائفها ، وكان فى داخلها كأس ذهبية جميلة الشكل دقيقة الصنع ، وكان حول قاعدتها الواسعة طاقة من الزهر يتخللها الآس وأوراق نباتات أخرى وفواكه بديعة الحفر دقيقة الصنع مغشاة بذهب شديد اللمعان وآخر قليل التألق ، وكان حول منتصف الكأس منطقة ثمينة عليها صور أطفال وحيوانات صغيرة متوحشة تلعب معهم أو تفر من بين أيديهم ، ثم أديرت الكأس برشاقة وخفة فمالت أعاليها كأنها تتهيأ لملاقاة الشفاه ، وكان الذهب يتوهج داخلها ويلتمع ، ووضع البرت الكأس بينه و بين الشاب ، وأشار إليه بالاقتراب منه ثم قال له « ألا تشعر بشىء عند ماتغرق ألحاظك فى سنا الكأس ؟

فقال فرديناند « نعم فان هذا الضوء يشرق فى أقصى أعماق قلبى وأستطيع أن أقول إنى أكاد أشعر به كقبلة فى صدرى الحران المشوق »

فقال البرت « هذا حق فلا تحرك الآن عينك عنه ، وصوبها نحوه

واجعل لمعان الذهب قيد عينك وفكر جهدك فى المرأة التى يهواها قلبك »

وجلس الاثنان صامتين وكلاهما يرمق باهتمام الكأس اللامعة ، وكان البرت قد بدأ قبل ذلك بدقائق يدوّم بأصبعه الممتدة فى دائرة مستديمة حول لمعان الكأس وقد بدأ ذلك التدويم بإشارات صامتة فى بطء وتريث ثم ازدادت سرعتها حتى صارت فى النهاية جد سريعة ، ثم توقف وابتدأ يصنع الدورات نفسها فى الناحية المقابلة ، و بعد انتهاء هذا بدقائق جال بظنه أنه يسمع عزف موسيقى مقبلة من الخارج من شارع بعيد ، ولكن النغمات كانت تقترب مرتعشة فى الهواء ، وأخيراً صار لا يخالجه الشك فى أن هذه النغمات منبعثة من أعماق الكأس ، وازدادت صدحاتها قوة ، وكانت لها قوة تضرب فى أعشار القلوب تركت قلبه رجّافاً نبّاضاً على أنغامها المصبوبة المتدفقة ، وكانت الدموع تنهل من مآقيه وتتفجر فى عينه ، وكانت يد البرت الحاذقة الصناع تتجه فى خطوط مختلفة حول فوهة الكأس ، وكان يظهر كأن شرراً يتطاير بين أصابعه وكأن ذلك الشرر ينقض من طرق متشعبة إلى الذهب وكان يسمع له طنين عند ما يتلاقيان ، وكانت النقاط اللماعة تتكاثر وتتابع حركات أصبعه إلى الأمام و إلى الخلف ، وكانت تشع منها أنوار مختلفة الألوان ، وكانت تزدحم وتلتئم حتى اجتمعت فى خطوط غير منكسرة ، وقد ظهر الآن أن البرت كان وهو فى الناحية الحمراء الداكنة يلقى شبكة غريبة فوق الذهب المتوهج لأنه كان يجر حزم الضوء إلى هذه الناحية أو تلك كما يتراءى له ، وكان يليح بها نحو فوهة الكأس ، وكانت تطيعه وتثبت فى موضعها كغطاء يروح ويجىء ويقبل ويدبر وينتثر

و ينتظم و ينفصل و يتصل ولما أثبت شعب الضوء فى هذا الوضع أخذ يوضح الدائرة حول حافة الكأس فتباعدت الموسيقى وصارت تضعف شيئاً فشيئاً حتى غابت آثارها ، ولما كانت النغمات تولّى ذاهبة كانت الشبكة الملتهبة بالشرر تهتز إلى الأمام والخلف كأنها تتنزّى من الألم ، و بينما هى تزداد اضطرابا إذ تبددت إلى قطع ، وصارت خيوط الضوء تنهمر انهمار الغيث فى الكأس ، وحين كانت هذه القطرات تتساقط ارتفعت منها سحابة حمراء كانت تتحرك حركة داخلية فى دوامات عدة ، وكانت هذه الدوامات تطفو فوق حافة الكأس كالرغوة ، ثم برزت نقطة مشرقة لامعة بسرعة ملحوظة من هذه الدائرة السحابية وأخذ يتكون حولها شبح حبيبته ، وظهر فجأة من فتق البخار شكل العين وأقبلت غدائر الشعر تتثنى ثم أخذ يتمشى احمرار رقيق فى أنحاء الشبح ورأى فرديناند محيا حبيبته المشرق البسام وعينيها الزرقاوين وخدها الأسيل وفمها المتورد الجميل ، وكان رأسها يميل إلى الأمام و إلى الخلف ، ثم أخذ يبدو أكثر جلاء فوق جيدها الأهيف الوضىء و يومىء إلى الشاب المأخوذ من الدهشة والفرح ، وكان البرت مقبلا على إقامة الدوائر حول الكأس حتى برز عطفاها ، وأخذت الصورة تستتم تركيبها و تستوفى أجزاءها ، وكانت تنحنى فى رشاقة مستحبة ، ثم أخذ يظهر الصدر الناعم المقوس وعلى النهدين البارزين وردتان جميلتان لهما حمرة سرية مستعذبة ، ولما مالت نحوه الصورة المحبوبة وكادت تلمسه شفتاها الملتهبتان نسى من فرط السرور وعده وغاب عن رشده ونهض

من مقعده وانحنى على ذلك الفم الياقوتى وقبله وحاول أن يقبض على الساعدين الجميلين وأن يستنقذ تلك الصورة الآسرة للروح السالبة للعقل من سجنها الذهبى ، ففى التوّ واللحظة اضطربت الصورة اضطرابا شديداً وانفصل الرأس عن الجسم وتبددا فى خطوط كثيرة العدد ، وكانت هناك وردة ملقاة فى أسفل الكأس تتمثل فى حمرتها ابتسامة عذبة ، فتناولها فرديناند فى لهفة والتياع وضمها لشفته فذبلت من حرارة أشواقه وآضت هواء

فقال له البرت بصوت المغيظ المحنق « إنك لم تف بوعدك ونفسك فقطعها لوماً ، ثم لف الكأس كما كانت وأزاح الستائر وفتح النافذة فدخل منها ضوء النهار ، ثم خرج فرديناند كاسف البال حزينا بعد أن حاول عبثاً إرضاء البرت ، وكان البرت لايزال متقد الغضب

وهرول فى شوارع المدينة وهو شارد الخاطر مضطرب الفكر وأفضى به التسيار إلى أحد أبوابها فجلس خارج الباب فى ظلال الأشجار ، وكانت أخبرته فى الصباح أنها ذاهبة فى المساء مع جماعة من أقاربها إلى الضواحى ، ولما أسكره الحب استوى قائماً وجاس خلال الغابات ، وكانت صورتها المأنوسة ماثلة لعينه بينا هى تطفو وترسب فى لهب من الذهب ، وكان ينتظر ظهورها للقائه فى رونق بهائها ، ولكن سرعان ما كانت تتفرق أجزاء تلك الصورة البديعة وتتبدد ، ولم يكن راضياً عن نفسه لأن هواه غير المستقر وضجة مشاعره واهتياج حواسه بددت نظام الصورة وربما قضت على آماله وفرقت شمل سعادته إلى الأبد

ولما صار الطريق بعد الظهر مزدحماً غاصاً بالناس انسل إلى الأدغال ، ولكنه كان لا يزال يرمق جانب الطريق البعيد ، فكانت كل عربة تمر من الباب تلمحها عينه

وأقبل الليل وكانت الشمس المائلة للغروب تلقى أشعتها الحمراء الباهرة حين خرجت من الباب عربة مطهمة كانت تسطع أضواؤها المتوقدة فى وهج المساء ، نخف إليها ، وكانت عينها قد لمحته ، وحنت صدرها اللماع الزاهى من النافذة فى رفق وابتسام ، وتقبل تحيتها الرقيقة و إشارتها الخفية ، وكان واقفاً إلى جانب العربة فانهلت عليه نظرتها ولما تراجعت لتبتعد سقطت الوردة التى كانت تزين صدرها عند قدمه ، فالتقطها وقبّلها ، واختلج فى نفسه أن تلك الوردة تقول إنه لن يرى حبيبته مرة أخرى ، و إن غدر مسراته قد جفت فلن يعود لها تدفق ومسيل وأن نجم سعادته قد غاله من بعد البزوغ الأفول ، وأن زهرة حياته ستلجّ من بعد النضرة فى الذبول

(الفصل الثانى)

كانت الخطوات الحثيثة تمر فوق درج السلم فى صعود وهبوط ، وكان المنزل جميعه فى هرج وجلبة وحركة ، وكان سكانه يتأهبون لحفلات الغد ، وكانت ربة الدار أكثرهم فرحاً وأشدهم إقبالاً على العمل ، وكانت العروس قد نفضت يدها من العمل ولزمت حجرتها لترسل الفكر فى مصير حياتها ،

وكانت الأسرة تنتظر ابنها البكر وزوجته — وكان ضابطاً فى الجيش — والأختين الكبيرتين وزوجيهما ، وكان ليو بولد — الابن الأصغر — يفتن فى الخبث لإكثار الفوضى وتعميمها وإطالة الهرج والجلبة ، وكان يعرقل أعمال الجميع ويفسد مساعيهم بدعوى أنه يعاونهم على التنظيم والتنسيق ، وكانت أخته « اجاثا » التى لم تتزوج بعد تحاول عبثاً رده إلى عقله ، وإقناعه بأن لا يصنع شيئاً ، وأن يترك الآخرين فى سلام ، ولكن والدتها قالت لها « دعيه وسخافاته ، لأن كثيرها أو قليلها لا يعد اليوم شيئاً مذكوراً ، وإنى أطلب إليكم جميعاً أمراً واحداً ، وهو أن تقدروا تكاثر الأشغال علىّ فى هذا اليوم فلا تعملوا على إزعاجي بأنباء جديدة إلا إذا كانت عن أمر كبير الأهمية خطير الشأن ، فإذا كسر أحد صحناً أو نقص معلقتان ، أو هم أحد الخدم الأجانب بتحطيم النوافذ فانى لا أعبأ فتيلا بأمثال هذه الحوادث ، ومن أجل ذلك أرجوكم أن تريحوا أذنى اليوم من سماع أمثالها ، ومتى انتهت هذه الأيام الصاخبة عاودنا النظر فى أمثال هذه الحوادث »

فقال لها ولدها ليو بولد « لله درك يا والدتى ، إن هذه المشاعر جديرة بربة منزل مثلك ، فإذا دقت إحدى الخادمات عنقها ، أو أثر السكر فى الطاهى فحرق المطبخ ، أو أراق الساقى النبيذ على الأرض لفرط سروره أو شربه فإن مثل هذه الحوادث التافهة سوف لا تبلغك ، ولكن إذا كان هناك زلزال يهدم المنزل ، فإنه ليس من الميسور أن يبقى هذا الخبر سراً مكتوماً »

فقالت الوالدة « متى يتخلى عن سخفه وهرائه ؟ وماذا يقول أختاك عندما يجدانك فى مثل هذه الحالة من الميل إلى المرح واللعب والمشاغبة كعهدهما بك منذ عامين ؟ »

فقال ليو بولد إنهما سيمتدحان ثبات أخلاقى ولا يقولان أنى إنسان سريع التحول كثير التلون مثلهما أو مثـل زوجيهما اللذين تغيرا تغيراً كبيراً فى هذه السنوات القلائل

ثم دخل العروس وسأل عن عروسه ، فأرسلت إليها الخادمة لتدعوها ، ثم قال العروس « هل ذكر لك ليو بولد طلبى يا والدتى العزيزة ؟ »

فقال ليو بولد : « نعم ذكرت لها طلبك بلا ريب ، ولكن الفوضى الضاربة حولنا لا تترك للانسان منفسحاً ليفكر فكرة مقبولة »

ودخلت العروس وتبادل العروسان التحية فى سرور وابتهاج ، ثم قال العروس : « الطلب الذى أبغيه هو أنك لا تظنيها كبيرة إذا أنا أحضرت ضيفاً غريباً إلى منزلكم الذى قد ازدحم بالضيفان الآن »

فقالت الوالدة : « أنت نفسك تعلم أن المنزل على اتساعه لا يتيسر أن أجد فيه الآن غرفة أخرى خالية »

فقال ليو بولد : « لقد سبقتكما إلى تسوية هـذه المسألة وقد أعددت غرفة المخدع الكبير له »

فقالت الوالدة : « ولم ذلك ؟ إنها مكان بغيض وقدمضت سنوات وهى مستودع للأخشاب »

فقال ليو بولد : « ولكنها الآن مرتبة ترتيباً بديعاً ، وصديقنا الذى أعددناها له لا يعير أمثال هذه الأمور التفاتاً ، وهو لا يبغى منا سوى حبنا وهو أعزب يهوى الانفراد والعزلة وإنها المكان الذى يلائمه وقد لقينا مشقة فى حمله على المجىء وحثه على الظهور ثانية بين إخوانه البشر »

فقالت أجاثا : « لا أظنه صديقك المظلم الناحية الساحر صانع الذهب »

فقال العروس : « هو بعينه إذا كنت تصرين على منحه هذه الألقاب »

فقالت أجاثا : « لا تسمحى له إذن يا والدتى بدخول منزلنا ، وماذا نصنع برجل مثل هذا ؟ ولقد رأيته مرة فى الطريق مع ليو بولد فاحتوانى الخوف منه ، وهذا المذنب الطاعن فى السن لا يذهب إلى الكنيسة ولا يحب الله ولا الإنسان ، وقد يصيبنا شر من وراء حضور أمثاله من الكفار مثل هذا الحفل ، ومن ذا يعلم ماذا عسى أن تكون العاقبة ؟

فقال لها ليو بولد غاضباً : « إنك تحكمين عليه بذلك لجهلك أمره ولأن سحبة أنفه لا تروقك ، وتظنينه ساحراً من خدام الشيطان لأن ظلال الشباب قد تحسترت عنه وروعة الصبى فارقته »

فقال العروس : « أفسحى يا والدتى العزيزة مكاناً لهذا الصديق المسن فى منزلك ودعيه يقاسمنا أفراحنا ومسراتنا ، وهو ياعزيزتى أجاثا قد قاسى طويلاً من عنت الهموم وطالت معالجته للأحزان ، وقد جعلته الهموم التوالى قليل الثقة بالناس كارهاً لهم ، وهو يتجنب الجماعات ويؤثر العزلة ، وصديقاه الاثنان هما ليو بولد وأنا ، وإنى مدين له كثيراً ، فهو الذى وجه ميولى وجهة صالحة ، وجعلنى جديراً بحب جوليا

فقال ليو بولد « وهو يعيرنى كتبه ، ولا يبخل على بمخطوطاته ، ولا يضن علىّ بنقوده عند سماع كلمة واحدة منى ، وهو رجل سمح الأخلاق كريم النزعة ، ولعلك يا أختى عند ما تنظرينه عن قرب و تعرفين سجاياه يزول من نفسك الإعراض عنه والتبرم بما يبدو لك من جهامة منظره »

فقالت الوالدة « لا أرى بأساً فى إحضاره هنا ، وقد سمعت عنه كثيراً من ليو بولد حتى لقد استشرفت إلى لقائه وتطلعت إلى الوقوف على حقيقة أمره ، ولكن لا يمكننى أن أقيمه فى مكان أليق من المخدع المذكور »

وفى اللحظة نفسها أعلن نبأ قدوم أضياف ، وكانوا من أفراد الأسرة وهم الأختان المتزوجتان وأخوهما الضابط ، وكان معهم أولادهم ، وسرت الوالدة لرؤية أحفادها وشمل السرور الحاضرين جميعهم وتجاذبوا أطراف أحاديث شائقة مسلية ، واشترك العروس وليو بولد فى تحية القادمين ثم توجها بعد التحية ليبحثا عن منزل صديقهما الشيخ الهرم الحزين ، وكان يقيم أكثر أيام السنة فى الضواحى على مسافة فرسخ من المدينة ، ولكن كان له منزل محفوف بحديقة على كثب من باب المدينة ، وهناك جمعتهما به المصادفة ، وقد وجداه فى مقهى كانا قد اتفقا معه من قبل على اللقاء به ولما حان المساء أتيا به إلى المنزل بعد حديث قصير

وتلقته الوالدة بالبشر والحفاوة ، ووقفت البنات بعيدات عنه ، وكانت أجاثا خجلة وقد تجنبت نظراته ، وما كادت تنتهى أحاديث الاستقبال والترحيب حتى أقبلت العروس فاستقرت عليها عينه ووضحت على وجهه

آيات التأثر الشديد ولوحظ أنه يبذل قصارى جهده ليحبس قطرة من الدموع منحدرة من عينه وقد سر العروس لسروره ، وحدث بعد ذلك وهما واقفان إلى جانب النافذة أن أخذ بيده وقال له « ما قولك الآن فى جوليا الجميلة الحسناء ؟ أليست هى ملكة من السماء ؟ »

فقال الرجل المسن والانفعال باد عليه «إنى لم أر يا صديقى أروع من هذا الجمال البارع الفتان ، و إنى أقول إنها قد بلغت من القسامة والحسن إلى حد أنه يمثل إلى أنى عرفتها من أزمان تصرمت ، وهى و إن كانت غريبة عنى فان صورتها كانت دائماً صوب عينى ولم تبرح مخيلتى »

فقال له الشاب « إنى أفهم مغزى حديثك ، فان الشىء الصادق الحسن الجليل الفخم عندما يغمر مشاعرنا و يبهر حواسنا يكون على رغم ذلك غير مستغرب فى عيوننا ولا يبد لنا كشىء لم نسمع به ولم ننظره ، والأمر على نقيض ذلك فإن طبيعتنا الخفية المستسرة تنجاب عنها الاستار فى مثل هذه اللحظات وتتبدى جلية مسفرة، وتستيقظ أعمق ذكرياتنا وتنتبه أعزمشاعرنا وتعاودها النضارة والفتوة »

ولم يشترك الغريب فى الحديث أثناء تناولهم العشاء ، وكانت نظراته موجهة إلى العروس فى لهف واهتمام حتى أربكها بنظراته وأخافها ، وروى الضابط حوادث غزوة كان من أبطالها ، وأفاض التاجر الثرى فى ذكر المضاربات والأيام السيئة ، وأخذ المزارع يتكلم عن الإصلاحات التى يزمع إدخالها فى ضيعته .

ولما انتهى العشاء استأذن العروس وعاد للمرة الأخيرة إلى غرفته المنعزلة لأن الاتفاق كان قد تم على أن يقيم الزوجان فى منزل الوالدة ، وأعدت لهما الحجرات المناسبة ، وانفرط عقد الجماعة ، وقاد ليو بولد الغريب إلى غرفته ، وقال له وهما سائران : « رجائى أن تسامحنا لاضطرارنا إلى أن نقيمك فى مكان بعيد ، أسباب الراحة فيه غير متوفرة ، ولكنك قد رأيت بعينك كثرة أفراد أسرتنا ، وسيحضر فريق منهم غداً ، واعلم أنه ليس فى وسعك الآن أن تفر من يدنا لأنك لا تدرى طريقك فى هذا المنزل الواسع الرحيب »

واجتازا ممرات كثيرة ، واستأذن فى النهاية ليو بولد صديقه وحياه وانصرف ، ووضع الخادم شمعتين على المنضدة ، وسأل الغريب هل يسمح له بمساعدته فى خلع ملابسه ، ولما أعفاه من ذلك ذهب لسبيله ، وخلا إذ ذاك الغريب بنفسه .

فأخذ يذهب و يجىء فى الغرفة وهو يقول لنفسه « كيف انبعثت من قلبى اليوم صورتها واضحة جلية ؟ ولقد نسيت الماضى البعيد وخلتها أمام عينى ولقد عدت إلى الشباب ، وكان صوتها فى أذنى حلو الرنين كما أعهده ، ولقد حسبتنى أستفيق من حلم ثقيل ولكن لا ، لقد صحوت من رقدتى وتلك اللحظات الهانئة لم تكن سوى وهم جميل »

وكان من اهتياج الخاطر واضطراب النفس بحيث لم يجد النوم السبيل إلى جفنيه ، وأخذ ينظر إلى بعض الصور المعلقة على الحوائط ، ثم أجال نظره فى الغرفة ، ثم قال « إنى قد ألفت من قبل كل ما حولى و إنى

لأستطيع أن أتصور أنى قد عرفت هـذه الدار من أزمان بعيدة » وأخذ يستجمع ذكرياته ، وتناول بعض الكتب الضخمة التى كانت فى أحد أركان الغرفة ، ولما قلّب صفحاتها هز رأسه ، وكان معلقاً على الحائط غطاء عود ، ولما كشف الغطاء وجد آلة قديمة عجيبة قد أخلق الزمن جدتها وليس بها أوتار ، فقال متعجباً لست مخطئاً ، وهذا العود ممتاز الصنع ، وهو العود الاسبانى عود صديقى ألبرت المسن الذى طواه الموت منذ زمن طويل ، وهذه كتب السحر ، وتلك هى الغرفة التى أطلعنى فيها على الرؤية المباركة السعيدة ، وقد نصل لون القماش المزركش الذى كان يغطى الجدران ، ولكن كل ما يتعلق بتلك الساعات ما زال فى نفسى شديد الوضوح قوى الأثر ، وقد كان ذلك باعث ما غشينى من الخوف وأنا قادم إلى هذا المكان من تلك الممرات الطويلة المتداخلة التى قادنى فيها ليوبولد ، فيا لله ! ها هنا على نفس تلك المنضدة انتعشت الصورة وتفتحت و بسقت كأنما قد روتها وأنعشتها حمرة الذهب ، وها هنا ابتسمت لى الصورة التى كادت تطير بلبى هذه الليلة ونحن فى قاعة الاستقبال ، تلك القاعة التى طالما مشيت بها متحدثاً مع صديقى ألبرت أحاديث الثقة والود »

ثم خلع ملابسه ولم ينم إلا حثاثاً ، واستيقظ عند ما ضرب الفجر بعموده وفتح النافذة ، وكانت الحدائق والمبانى كما كانتا إذ برد شبابه قشيب ، وظهرت منازل أخرى جديدة بنيت فى خلال تلك الفترة الطويلة ، فقال وقد تصعدت زفراته « لقد مرت أربعون عاماً على ذلك المساء ، ولقد عشت

فى كل يوم من تلك الأيام المشرقات حياة ممتلئة حافلة أكثر وأطول مما عشته فى الفترة الطويلة الممتدة بينى و بينها »

ثم دعاه أفراد الأسرة إلى اجتماع عقدوه ؛ وقضى فترة الصباح فى أحاديث مختلفة معهم ، وأخيراً أقبلت العروس فى زينتها و بهائها فلما لحظها ظهر عليه تأثر شديد شاهده الحاضرون ، وذهبوا إلى الكنيسة جميعاً وتمت هناك حفلة الزواج ، ولما عادوا إلى المنزل قال ليو بولد لأمه « ماذا تقولين يا أماه فى صديقنا الكهل العبوس الطيب السريرة ؟ ؟

فقالت « لقد ظننت أن صورته أشد إثارة للقلق والخوف مما رأيت ، وهو رجل رقيق الحاشية جم العطف وقد نجد منه صديقاً ناصح الجيب وافر الإخلاص »

فقالت أجاثا « أتؤملين الإخلاص فى صاحب تلك النظرات الرهيبة الملتهبة وهذا الوجه الممتلىء بالتجعدات وهذا الثغر الأصفر الغائر وهذه الضحكة الغريبة التى ترن فى سخرية واستهزاء ؟ لا ، وقانى الله شر أمثاله من الأصدقاء ، إن الأرواح الشريرة إذا تبدت فى صورة بشرية فلا ريب أنها تظهر فى مثل صورته »

فقالت والدتها « إنى أظنه أقل سناً وأكثر حسناً ، وليست صورته كما تصفين ، ومن السهل أن يلحظ الإنسان أنه حاد الطبع ، وأنه قد راض نفسه على كتمان مشاعره وربما يكون قد لاقى من أبكار الخطوب الفواجع ونوازل الهموم الصوادع ما تركه قليل الثقة بالناس وأفقده صراحته البسيطة وهى فى العادة نصيب السعيد »

ثم دخل بقية أفراد الأسرة فوقف مجرى الحديث ، وأحضر العشاء ، وجلس الغريب بين أجاثا والتاجر الثرى ، ولما ابتدأ شرب الأنخاب صاح ليوبولد قائلا انتظروا قليلاً يا أصدقائى المبجلين فإنى سأحضر الكأس الذهبية لأديرها على الحاضرين ، وهم بترك مكانه ، ولكن والدته أشارت إليه أن يظل مكانه وقالت « لا يمكنك أن تعرف موضعها لأنى حفظتها فى مكان خاص ثم انفلتت لإحضار الكأس

فقال التاجر « إنها خفيفة الحركة فانظر كيف تسير فى رشاقة ، وقد أربى عمرها على الستين ولكنها دائماً باسمة الوجه كثيرة البشر والإيناس ، وهى موفورة السرور فى هذا اليوم خاصة لأنها ترى نفسها قد عادت إلى رونق الشباب فى جوليا »

فوافقه على ذلك الضيف الغريب ، وعادت السيدة وفى يدها الكأس وكانت ملأى بالنبيذ ثم أديرت عليهم فكان كل منهم يشرب نخب أعز الناس عليه وأحبهم إليه ، فجوليا شربت نخب زوجها وهو شرب نخب حبيبته جوليا ، واقتدى بهم الآخرون عند ما أفضت إليهم الكأس ، ولكن الوالدة أبطأت وترددت عند ما وصلتها الكأس

فقال لها ولدها الضابط فى سرعة وخشونة « أسرعى وأديرى الكأس ، و إننا نعرف رأيك فى أن الرجال جميعهم خونة ولا عهد لهم وأنه ليس بينهم من هو جدير بحب امرأة ، قولى لنا إذن من أعز الناس عليك ؟ »

فنظرت إليه والدته وقد اختفت من وجهها علائم السرور وعلته لمحات الكدر وقالت » : إن ابنى من أعرف الناس بأخلاقى ، وقد أصدر حكمه

القاسى على ما يدور بفكرى ، فاسمحوا لى أن أكتم عنكم ما جال ببالى وأرجو أن يظل ولدى صادقاً فى حبه حافظاً لعهده حتى يظهر بطلان اعتقادى وفساد فكرتى » ، ورفعت الكأس دون أن تشرب ، وعرت الحضور من ذلك حيرة وشىء من الارتباك

فالتفت التاجر إلى الغريب وقال له همساً « يروى عنها أنها كانت لا تحب زوجها ، وكانت أحبت رجلاً آخر ولكنه نكث عهده ولم يستمسك بموثقه ، ولقد كانت فى صباها أجمل فتيات المدينة »

ولما وصلت الكأس إلى فرديناند أخذ يحدق فيها وقد تملكته الدهشة لأنها كانت الكأس التى أخرج منها البرت المسن الشبح الجميل ، ثم أخذ ينظر إلى ذهبها وإلى تماوج النبيذ فيها وارتعشت يده وصار يظن أنه ليس من المستحيل أن تخرج من تلك الكأس المسحورة الصورة التى يعرفها وتجلب معها الشباب الراحل والعيش الزائل ثم قال بصوت مسموع « هل الذى يلمع فى داخل الكأس نبيذ ؟ »

فقال التاجر ضاحكا « نعم أو كنت تظنه شيئاً آخر ؟ اشرب واستمتع »

فسرت رعدة من الخوف فى أضلاع الرجل المسن وهتف باسم فرانشسكا فى صوت عال مرتجف ووضع الكأس على فمه ، فرمته الوالدة بنظرة دهشة واستفسار

ثم قال فرد يناند وقد استحيا من حيرته وارتباكه « من أين استحضرتم هذه الكأس ؟ » فقال ليوبولد « منذ سنين طويلة وقبل أن أولد ، وقد اشتراها والدى وسائر المنزل وأثاثه من رجل طاعن فى السن أعزب كان

دائم العزلة والصمت وكان جيرانه يظنونه ساحراً ولم يقل الغريب إنه كان يعرف هذا الرجل المسن لأنه كان فى حيرة وخبال

ثم رفع الطعام ، وذهب الصغار ليستعدوا للرقص ، وخلا فرديناند بالوالدة ، فقالت له ادن منى فإن سنوات رقصنا قد مضت ، و إذا كنت لا ترى فى سؤالى نكراً فاسمح لى أن أسألك هل أبصرت كأسنا مرة أخرى قبل اليوم ؟ وما الذى سبب لك كل هذه الأزمات النفسية والثورات الداخلية ؟

فقال لها إنى أسألك الصفح يا سيدتى لما بدا علىّ من آثار الانفعالات ، ومنذ دخولى منزلكم شعرت بأنى غبت عن نفسى ، ونسيت أن شعر رأسى قد اشتعل شيبا ، وأن القلوب التى كانت تنبض بحبى قد أسكتها الموت ، وابنتك الجميلة التى تحتفل اليوم بأسعد أيام حياتها تشبه حسناء عرفتها وتعلقت بها فى أيامى الماضيات وغصن الشباب نضير ، بل لا أقول إنها تشبهها و إنما أقول إنها هى نفسها ، وانى لأحسب ذلك معجزة من المعجزات ، وقد اختلفت إلى هذا المنزل قبل اليوم ، وعرفت تلك الكأس فى حادثة لا تزال منقوشة فى ذاكرتى ، و إنه ليعز على يد الأيام أن تمحوها منها ، وهنا أخبرها بقصته وقال فى ختامها « وفى مساء ذلك اليوم نظرت وأنا فى الحديقة حبيبتى آخر نظرة والعربة تسير بها ، وقد سقطت من صدرها وردة فالتقطتها ، وافتقدتها بعد ذلك لأنها لم تحفظ عهدى وتزوجت »

فقالت السيدة وقد ثارت سواكن نفسها وبلغ منها التأثر « يا لله ألست فرديناند ؟ »

فأجاب « إنه اسمى يا سيدتى »

فقالت السيدة أنا « فرانشيسكا »

فنهضا وتقاربا ليعتنقا ولكنهما تراجعا بغتة ، وأخذ كل منهما يحدق فى الآخر فاحصاً مدققا وكانا يبذلان الجهد ليجمعا من أطلال الزمن تلك الصورة التى كان كل منهما يعرفها فى الآخر ، وكما توجد لحظات فى الليالى العاصفة الكدراء الممتلئة بالزوابع والأعاصير وسود السحب تومض خلالها النجوم اللامعات خلسة ثم تختفى فكذلك كانت تنبعث لعينيهما الملامح الزائلة من الحواجب والعيون والشفاه ، وكانا كأنهما يريان شبابهما واقفا على كثب منهما بين الدموع والبسمات ، وانحنى فرديناند وقبّل يدها وتساقطت من عينه دمعتان كبيرتان ، ثم تعانقا عناقا قلبيا مخلصاً

ثم سألته « هل توفيت زوجتك » ؟

فقال متنهداً « إنى لم أتخذ لى زوجة طوال حياتى

فقالت وهى تضرب كفيها « إذن أنا التى خنت عهدك — ولكن لا إنى لم أكن خائنة ، فعند عودتى من الريف حيث قضيت شهرين سمعت من جميع أصدقائك وأصدقائى أنك عدت إلى بلدك وتزوجت هناك ، وأطلعونى على رسائل منك تؤكد ذلك ، وكانوا يستفيدون من يأسى وحيرتى وغضبى ، ولهذا رضيت الزواج من آخر وكان زوجا جديراً منى بذلك ، ولكن أفكارى وقلبى كانا دائماً فى حوزتك »

فقال فرديناند « إنى لم أبرح هذا البلد ، ولكنى سمعت بعد مضى زمن أنك تزوجت ، ولقد أرادوا أن يفرقوا بيننا وقد تم لهم ذلك ، ولقد صرت والدة سعيدة ، وأنا أعيش فى الماضى وسأحب أولادك كأنهم أولادى . ولكن العجيب أننا لم نلتق مرة قبل ذلك ! »

فقالت « لقد كان خروجى من المنزل نادراً ، وقد تغير اسم زوجى بعد زواجنا بقليل لأنه استحق ميراثا ، وبذلك كنت لا تستطيع أن تعرف أننا جد قريبين منك »

فقال فرديناند « لقد كنت أتحاشى الناس ، وعشت للوحدة ، وليو بولد هو الشخص الوحيد الذى استرعى انتباهى وحبب إلىّ الخروج والاختلاط بالناس ، فما أشبه افتراقنا والتقائنا بقصة رهيبة من قصص الجان ! »

ولما عاد الشبان والشابات كانا يبكيان ، وهما فى تأثر شديد ، ولم يقل أحدهما شيئاً عما حدث ، فقد كان السر جليلا مقدساً ، وبعد ذلك كان الرجل الهرم صديق الأسرة وقد التقيا فى شكل غريب ليرتبطا فترة قصيرة ربطة لا تفصم عروتها ولا تحل عقدتها ولم يفرق بينهما إلا محتوم الموت .



١٩٤٣/٧/١/١٠٤٦